

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

حين يفيض الاسمُ رحمةً ويصير الوجودُ كُلُّهُ جوابًا

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سورة الرحمن

حِينَ يَفِضُ الْإِسْمَ رَحْمَةً وَيَصِيرُ الْوَجْدُ كُلَّهُ جَوَابًا

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



ليست سورة الرحمن وصفاً للنعم فحسب، بل هي إعادة تعريف للوجود من أوله إلى آخره؛ إذ تأخذ الإنسان من اللحظة التي أنبثق فيها المعنى في قلبه، إلى اللحظة التي يقف فيها بين يدي ربه، ثم تمضي به من ميزان الدنيا إلى ميزان الآخرة، ومن انشقاق السماء إلى اخضرار الجنان، ومن سؤال التكليف إلى نشوة الجزاء. إنها سورة لا تضعك أمام أشياء متناثرة تسميها نعماً، بل تفتح بصيرتك لترى أن الوجود نفسه نعمة، وأنت لم توضع في كون أصم، ولم تلق في حياة بلا مقصد، ولم تترك بين الميلاد والموت لتصنع لنفسك معنى مؤقتاً ثم تدفنه معك؛ بل أحاطتك الرحمة قبل أن تعرف اسمها، وحملتك قبل أن تعرف حاجتك إليها، وخطبتك قبل أن تتعلم كيف تصوغ السؤال.

وسورة الرحمن لا تريد منك أن تحصى ما أعطاك الله فحسب، بل أن تكتشف من أعطاك، فالنعمة إذا انفصلت في الوعي عن المنعم تحولت إلى متاع، وإذا اتصلت به تحولت إلى معرفة، وبين المتاع والمعرفة تقع المسافة كلها بين إنسان يستهلك العالم وإنسان يقرأه. الأول يرى الشمس ضوءاً، والماء سائلاً، والفاكهة طعاماً، واللغة وسيلة؛ أما الثاني فيرى في الضوء رسالة، وفي الماء حياة، وفي الثمر عناية، وفي البيان نفخة من التكريم. ولهذا لا تبدأ السورة بالجنة، ولا بالأرض، ولا بالشمس، ولا بالإنسان، بل تبدأ بالاسم الذي يفسر كل شيء: «الرَّحْمَنُ». فكان الكون قبل هذا الاسم ألغاز مبعثرة، فلما جاء الاسم استقامت الأشياء في معناها، وعرف القلب أن اليد التي أنشأت العالم ليست يد قوة مجردة، بل يد رحمة، وأن السلطان الذي يقيم الموازن سلطان لا تنفصل قدرته عن حكمته، ولا حكمته عن رحمته.

وفي هذه السورة لازمة تهبط على القلب مراراً: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»، غير أنها لا تعود في كل مرة بالمعنى نفسه؛ لأن القلب الذي يسمعها بعد خلق الإنسان ليس هو القلب الذي يسمعها بعد ذكر الميزان، ولا هو الذي يسمعها بعد النار، ولا هو الذي يسمعها عند أبواب الجنتين. العبارة واحدة، ولكن الطريق بيد السامع، وكل عودة إليها امتحان جديد للوعي: هل ما زلت ترى؟ هل ما زلت تعرف؟ هل ما زال في قلبك موضع للاعتراف؟ إنها لا تكرر السؤال، بل تكرر إيقاظ الإنسان؛ لأن الغفلة لا تهزم ببناء واحد، ولأن النعمة التي تحيط بنا من كل جهة تحتاج إلى صوت يتردد من كل جهة.

فلندخل هذه السورة لا دخول مفسر يقف خارج النص ويصفه، بل دخول إنسان يبحث عن نفسه في مرايا الوحي؛ نقرأها بأعين أنهلكها الاعتياد، ونرجو أن تعيد إليها الدهشة، ونصغي إليها بقلوب ازدحمت عليها أصوات العالم، ونرجو أن تسترد في حضرتها نقاء السماع. سمضي فيها كما يمضي العطشان في بستان تشكأثر ينابيعه: لا يعبر الماء مسرعاً، ولا يكتفي بوصفه، بل ينحني عليه، ويرى وجهه فيه، ثم يشرب.

الاسم الذي أضاء الوجود

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَيْهِ الْبَيَانُ﴾

تفتح السورة بابها بكلمة واحدة، لكنها كلمة لو انفتحت معانيها في القلب لاتسع بها الوجود كله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. لا مبتدأ قبلها نبحث عنه، ولا خبر بعدها يحصر معناها؛ اسم قائم في جلاله، مكتنف في إشرافه، كأن السورة تريد أن تُسكت فينا ضجيج الأسئلة قبل أن تجيب عنها، وأن تقول: قبل أن تنظر إلى الخلق، وقبل أن تتأمل القرآن، وقبل أن تبحث عن سر الإنسان، اعرف الاسم الذي صدر عنه هذا كله. فالرحمن ليس صفةً عابرةً في هامش الوجود، بل هو الحقيقة التي يستمد منها الوجود قابليته لأن يكون مفهوماً ومأموناً وذات غاية. ولو كان الذي خلق الإنسان قوةً بلا رحمة، لكان الوعي لعنةً؛ لأن الإنسان سيرى ضعفه ولا يجد من يلجأ إليه، ويعرف موته ولا يجد وراءه وعداً، ويدرك اتساع الكون ولا يجد في ذلك الاتساع قلباً يحفظه. لكن أول ما تقوله السورة لهذا الكائن المرتجف في أطراف المجهول: إن الذي أوجدك هو الرحمن.

وفي اختيار هذا الاسم دون غيره عذوبةٌ تهز القلب من أعماقه؛ فلم تقل السورة: القادر علم القرآن، مع أن التعليم قدرة، ولم تقل: الخالق علم القرآن، مع أن خلق الإنسان سيذكر بعدها، ولم تقل: العليم علم القرآن، مع أن العلم هو المقام الظاهر هنا، بل قالت: ﴿الرَّحْمَنُ﴾، لتكشف أن القرآن في حقيقته أثرٌ من آثار الرحمة، وأن الوحي ليس عبثاً أنزل لتضييق الحياة، بل نوراً أنزل لينقذها من أن تضيع في عماها. كل أمرٍ في القرآن رحمة، وإن شقّ على الهوى، وكل نهي فيه رحمة، وإن ضاق به الاندفاع العاجل، وكل حدٍ فيه سور يحمي إنسانية الإنسان من وحشٍ يتربص بها في داخله. فالقرآن لم ينزل لأن الله يريد من الإنسان أن يتيه في كثرة التكالييف، بل لأنه سبحانه لا يريد أن يتيه بلا طريق.

ثم تأتي المفاجأة البيانية والفكرية الباهرة: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قبل ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾. ومن جهة الزمن، كان خلق الإنسان سابقاً لتعلمه، لكن ترتيب المعنى هنا يتجاوز ترتيب الأحداث؛ لأن القرآن هو الذي يكشف للإنسان لماذا خُلق، وما قيمة خلقٍ لا يعرف صاحبه غايته؟ إن الجسد قد يوجد بالطين، ولكن الإنسان بمعناه لا يكتمل إلا بالهداية؛ ولذلك تقدّم تعليم القرآن، كأَنَّ المعنى سبق الوعاء، وكأَنَّ الغاية سبقت المسافر، وكأَنَّ الله هيباً للإنسان جواب وجوده قبل أن يلقي في قلبه سؤال الوجود. لم يُخلق الإنسان ثم ترك قروناً في ظلام العبث

حتى يعثر مصادفةً على تفسير نفسه؛ بل كان النور في علم الله سابقاً على العين التي ستبصره، وكان الخطاب سابقاً على الأذن التي ستسمعه، وكانت الهداية معدةً قبل أن تمس قدم الإنسان أول الطريق.

وهنا تبدل نظرنا إلى القرآن؛ فهو ليس كتاباً أضيف إلى حياة الإنسان بعد اكتمالها، بل هو داخل في أصل تعريفها. لا يصير الإنسان إنساناً كامل الدلالة بمجرد أن ينتصب جسده، ويعمل عقله، ويتكلم لسانه؛ إذ قد يملك هذه كلها ثم يعيش دون أن يعرف مَنْ هو، ولا من أين جاء، ولا إلى أين يمضي. إن حضارةً تستطيع أن تتعلم الإنسان كيف يشطر الذرة، ولا تستطيع أن تحبها لماذا ينبغي ألا يشطر بها صدور الأبرياء، قد صنعت عقلاً هائلاً وتركت الروح يتيمه. والعلم الذي يضاعف القدرة من غير أن يهدي الإرادة قد يجعل الإنسان أخطر مخلوق على الإنسان؛ ولذلك تقدم القرآن في السورة، لأنه ليس معلومةً بين المعلومات، بل الميزان الذي يمنع المعرفة من أن تتحول إلى طغيان، والقبلة التي تحمي العقل من أن يركض بقوة في الاتجاه الخطأ.

ثم تقول السورة: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، وفي هذا الانتقال من تعليم القرآن إلى خلق الإنسان إيحاءً بأن هذا المخلوق لم يُخلق غريباً عن الوحي، بل خلق وفي بنيته قابليةً لسماعه وفهمه والاستجابة له. هناك صلةٌ خفية بين الكتاب والقلب؛ لأن الذي أنزل الكتاب هو الذي صنع القلب، والذي رتب الآيات هو الذي رتب في النفس منافذ إدراكها. ولهذا قد يسمع الإنسان آيةً فيشعر أنها لم تأت إليه من خارج، بل أيقظت شيئاً كان نائماً في أعماق أعماقه. القرآن لا يخاطب الإنسان بوصفه جسداً يبحث عن البقاء فقط، بل بوصفه سراً يبحث عن معناه، وضميراً يحنّ إلى الحق ولو تراكم عليه غبار الرغبات، وروحاً لا تشبعها الأرض مهما زخرت لها موائدها.

ولم تقل الآية: خلق البشر، بل قالت: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾؛ ذلك الكائن الذي يأنس ويؤنس، والذي يحمل في اسمه ظلال القرب، ويحمل في طبعه كذلك قابلية النسيان. هو مخلوق العلاقة والذاكرة معاً: لا يعيش وحده، ولا يستقيم إذا نسي ربه. ومن هنا كانت رحمته الكبرى أن يعلبه الله ما يردّه كلها نسي، وأن يفتح له في القرآن باب العودة مهما ابتعد. فالإنسان ليس عظيماً لأنه لا يضل، بل لأن الله جعل له من الوحي طريقاً يعود به من ضلاله؛ وليس مكرماً لأنه لا يسقط، بل لأن الرحمن لم يتركه على الأرض بعد سقوطه، وإنما أنزل إليه كلمات ينهض بها.

ثم تكتمل الرباعية المدهشة بقوله: ﴿عَلَهُ الْبَيَانُ﴾. لم يقل: علّيه الكلام؛ لأن الكلام قد يكون أصواتاً ثنائياً، أما البيان فهو أن ينكشف المستور، وأن يعبر المعنى من خفاء النفس إلى ظهور العبارة، وأن يستطيع الإنسان أن يمنح تجربته اسماً، وفكرته صورة، وألمه شكوى، وحبّه اعتراًفاً، وإيمانه شهادة. بالبيان خرج الإنسان من سجن الذات المفردة، وصار بوسعه أن يضع قلبه في كلماتٍ تفصل الكلمات إلى قلبٍ آخر؛ وبالبيان لم تعد الخبرة تموت بموت صاحبها، بل انتقلت الحكمة بين الأجيال، وتراكت المعرفة، وصار للماضي صوتٌ في الحاضر، وللحاضر رسالةٌ إلى المستقبل.

غير أن أعظم وظيفة للبيان ليست أن يصف الإنسان العالم، بل أن يعرف كيف يجيب مَنْ خاطبه بالقرآن. لقد علّيه الرحمن البيان لكيلا يبقى أمام النعمة صامتاً، وأعطاه اللسان ليقول: آمنت، وحمدت، وشكرت، ورجعت. ومن أوجع صور الخسران أن يستخدم الإنسان النعمة في بحد واهبها، أن يأخذ البيان من الرحمن، ثم يستخره لتزيين الباطل، أو كسر القلوب، أو تسويق الظلم، أو إنكار الرحمن نفسه. هنا تتحول الموهبة إلى حجة، ويصير اللسان الذي كان ينبغي أن يكون نافذةً للنور جداراً كثيفاً يحجب صاحبه عنه.

وإذا تأملنا موسيقى هذه الآيات وجدنا حركةً رقيقةً متصاعدة: ﴿الرَّحْمَنُ﴾، ثم ﴿الْقُرْآنُ﴾، ثم ﴿الْإِنْسَانُ﴾، ثم ﴿الْبَيَانُ﴾. نتأخى الفواصل صوتياً، كأن الألف والنون تحلان المعاني في موجاتٍ متلاحقة، ولكن التشابه الصوتي لا يخفي التدرج الفكري: المنعم، ثم النور، ثم المتلقي، ثم أداة التلقي والتعبير. الرحمن مصدر الرحمة، والقرآن صورتها الهادية، والإنسان موضعها المكرّم، والبيان وسيلته إلى فهمها والشهادة بها. إنها دائرةٌ كاملة تبدأ من الله وتتم بالوحي وتصل إلى الإنسان، ثم تعود من الإنسان بياناً وذكرًا وحمداً.

ولعل أجمل ما يوقفه هذا المطلع في النفس أن الإنسان لم يبدأ قصته محروماً، بل بدأها متعلماً؛ لم يبدأ وحيداً، بل بدأ مخاطباً؛ ولم يبدأ ضائعاً في كونٍ بلا اسم، بل بدأ تحت ظل الاسم الأوسع: ﴿الرَّحْمَنُ﴾. وقبل أن تعدّد السورة الشمس والقمر والنجم والشجر والبحر واللولؤ، وضعت في يد الإنسان أعظم نعمتين: نعمة أن يجد الحقيقة مبيّنةً في القرآن، ونعمة أن يجد في نفسه القدرة على تلقّيها وبيانها. فما قيمة أن تملك الدنيا إذا لم تعرف معناها؟ وما قيمة أن ترى الأشياء كلها إذا لم تر الرحمة التي تحملها؟ وما قيمة أن تتكلم كثيراً إذا لم تنطق الكلمة التي خلقت اللغة فيك لتقودك إليها: الحمد لله رب العالمين؟

الكون الذي لا يختل والإنسان الذي دُعي إلى الميزان

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

بعد أن كشفت الآيات الأولى عن رحمة الوحي، تنتقل السورة إلى رحمة النظام؛ فكأنها تقول للإنسان: إن القرآن الذي أنزل لهدايتك ليس غريباً عن الكون الذي تعيش فيه، فالكتاب والكون صادران عن إرادة واحدة، وكلاهما يردّ الفوضى إلى نظام، والتهيه إلى وجهة، والاختلال إلى ميزان. وإذا كان القرآن قد رتب للروح طريقها، فإن الشمس والقمر يكشفان أن الله رتب للزمن خطاه، فلا صباح يضل مواعده، ولا ليل ينسى طريقه، ولا قمر يستعجل منزلته، ولا شمس تتأخر عن مدارها. كل شيء يجري في توقيت لا تفسده العجلة، وبمقدار لا يعثب به الهوى؛ وحده الإنسان يريد أحياناً أن يصل قبل أن ينضج، وأن يقطف قبل أن يزرع، وأن يعطى قبل أن يعمل، وأن يغير مواقيت الحكمة لتوافق استعجال رغبته.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾؛ لفظة واحدة تجمع دقة المسير ودقة التقدير، وتفتح أمام العقل مشهداً كونياً لا يقوم على الارتجال، بل على حسابٍ لو اضطرب جزءٌ يسير منه لاختلت على الأرض شروط الحياة. إننا نرفع رؤوسنا إلى الشمس فراها قرصاً مضيئاً، وننظر إلى القمر فنراه زينةً معلقةً في سقف الليل، غير أن السورة تريد أن تنقلنا من جمال المشهد إلى هندسة الرحمة الكامنة وراءه؛ فليس الجمال مجرد صورة تُبهج العين، بل نظامٌ يحفظ الوجود. الشمس لا تمنحنا الضوء وحده، بل تمنح الزمن إيقاعه، والحياة حرارتها، والنبات قدرته على النماء، والقمر لا يسكب في الليل فضةً حاملةً فحسب، بل يدخل في حساب الأيام والشهور والمواقيت. وهكذا تعلمنا الآية أن النعمة قد تكون جميلةً في ظاهرها، دقيقة الصنعة في باطنها، وأن وراء ما يبهير العين عقلاً ربانياً رتب المقادير بحكمةٍ لا يحيط بها العقل البشري وإن أدرك شيئاً من آثارها.

إن كلمة ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ تصفع في الإنسان وهم العبث؛ لأن كوناً تُضبط فيه حركة الأجرام بهذا الإحكام لا يمكن أن يكون الإنسان فيه زائداً بلا غاية، ولا يمكن أن تكون الروح حادثاً عابراً في هامش مادةٍ عمية. فإذا كانت للشمس مسافةً محسوبة، وللقمر منازل مقدرة، وللفضول مواعيد، وللبذرة زمنها الخفي تحت التراب، أفلا يكون للإنسان حسابٌ يضبط مسيرته، وميزانٌ تُوْزن به أعماله، وموعدٌ ينتهي إليه؟ إن المادة المنضبطة حولك تسأل فضاءك

الداخلية: لماذا تعرف الأجرام مداراتها وتجهل أنت وجهتك؟ ولماذا تستسلم الشمس لأمر ربها، ثم يظن الإنسان أن حريته لا تكتمل إلا بالخروج على أمر خالقه؟ إن الحرية التي تنفصل عن الغاية ليست انطلاقاً، بل تيهٌ سريع، والسفينة لا تصير حرة حين تكسر بوصلتها، وإنما تصير فريسةً للجهات كلها.

ثم تهبط السورة من الشمس والقمر في الأعلى إلى النجم والشجر في الأرض: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. والنجم هنا يحتمل ذلك النبات الذي لا يقوم على ساق، فيجاوره الشجر القائم على جذع، كأن الآية تجمع ما انبسط على وجه الأرض وما ارتفع عنها؛ الضعيف الملتصق بترابه، والقوي الممتد بفروعه، وكلاهما يسجد. ويظل في اللفظ كذلك من الإشعاع ما يستدعي إلى النفس نجوم السماء، فتبدو صفحة الكون كلها، من النبتة الصغيرة إلى الضوء البعيد، مأخوذةً بحركة العبودية. وما أبدع أن تنتقل الفاصلة من ﴿حِسْبَانٍ﴾ إلى ﴿يَسْجُدَانِ﴾؛ لأن الحساب في الكون ليس انتظاماً آلياً بارداً، بل طاعة، والقانون ليس قوةً مستقلةً عن الله، بل أثرٌ دائم من آثار أمره. نحن نسمي ثبات الظواهر قوانين، أما القرآن فيرد القانون إلى صاحب الأمر، ويكشف وراء انتظام المادة معنى الخضوع.

ولكن كيف يسجد النجم والشجر؟ إنهما لا يسجدان كسجود الإنسان الذي يضع جبهته على الأرض، بل يسجدان بالطريقة التي تليق بوجودهما؛ يستجبان للأمر المودع في خلقهما، فلا تمتنع البذرة عن الانشقاق حين يأتي أوانها، ولا ترفض الجذور أن تهبط في ظلمة التراب، ولا تتفاوض الأغصان الربيع في شروط الإزهار. الشجرة كلها طاعة صامتة؛ تضرب بجذورها في الأرض، وتمتد بأغصانها إلى السماء، وتحول التراب والماء والضوء إلى ثمر وظلٍّ وجمال. وهي في ذلك تعطي الإنسان درساً لا تلقيه بلسان، بل بوجودها: تستطيع أن تكون ثابتاً في أصلك، صاعداً بروحك، وافر العطاء، وأنت في الوقت نفسه ساجدٌ لربك؛ فالعبودية لا تمنع الثناء، بل تهبه وجهته، ولا تقصّ أغصان الذات، بل تنقي ثمرها من السم.

وما أشد وحشة الإنسان حين يكون الكائن الوحيد الذي يرفض السجود في عالم ساجد. إنه يعيش على أرضٍ مطيعة، وتظلمه سماءٌ مطيعة، ويقتات من شجرٍ مطيع، وقيس أيامه بشمسٍ وقرٍ مطيعين، ثم يأخذ من هذه الطاعات كلها قوةً يستعملها في العصيان. وما أقطع المفارقة حين يحمل الطعام الذي أنبته السجود إلى جسدٍ يأنف من السجود، وحين يستضيء بنور الشمس ليكتب كلمةً يمجدها بها خالق الشمس. إن السجود لا يبدأ حين تلامس الجهة الأرض فحسب؛ إنه يبدأ حين يعرف الإنسان حده في هذا الوجود، وحين يكف عن منازعة

الله مقام الربوبية، فلا يجعل رغبته معيار الحق، ولا هواه مصدر الحلال والحرام، ولا مصلحته الصغيرة مركز الكون.

ثم ترتفع العين مرةً أخرى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾. بين رفع السماء ووضع الميزان مقابلةً بيانيةً فاتنة؛ رفعٌ في جهة، ووضعٌ في جهة، ليقوم الوجود بين علو السقف وثبات المعيار. والسماء في ارتفاعها ليست مشهداً للاتساع فقط، بل إيحاءً بأن هذا العالم لم يُنْ خفيض المعنى، وأن الإنسان الذي يطأ الأرض خلُق وفي روحه توقُّ إلى الأعلى. كلما رفع عينيه أبصر فسحةً لا يبلغ طرفها، فكأن السماء تُخرج قلبه من ضيق اللحظة، وتقول له: لست محصوراً في جدار حاجتك الراهنة، ولا في ألم يومك، ولا في انتصارٍ صغيرٍ أو هزيمةٍ عابرة؛ فوقك اتساعُ صنعه الله، وأمامك أبدُ أعدّه الله، وفيك روحٌ لا تستقر إذا اختزلت في قبضة التراب.

لكن السماء المرفوعة لا تعني أن يتيه الإنسان في التأمل المجرد؛ فبعدها مباشرةً يأتي الميزان الموضوع. وهذا من إعجاز التربية القرآنية: يرفع روحك بالسماء، ثم يعيد قدمك إلى مسؤولية العدل. فليست الغاية أن تنتشي بجمال الكون ثم تظلم الناس، ولا أن تتحدث عن جلال الخالق ثم تبخس عاملاً أجره، ولا أن تذرف الدموع في السجود ثم ترفع رأسك إلى حياة يختل فيها ميزانك. كل انفعالٍ ديني لا يصنع في صاحبه عدلاً مهددٌ بأن يكون لذةً روحيةً أنانية، وكل معرفةً بالله لا تجعل الإنسان أشد خوفاً من ظلم عباده معرفةً أصابها شيءٌ من الوهم. فالسماء والميزان في آيةٍ واحدة؛ لأن الروحانية التي لا تُثمر قسطاً انفصلاً عن مقصد الوحي، والعدل الذي لا يتصل بالسماء قد يتحول إلى شعارٍ تعيد القوة تعريفه كلما تغيرت مصالحها.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾؛ والميزان أوسع من الآلة التي تُوزن بها الأشياء، إنه مبدأ التناسب الذي بُني عليه الوجود، ومبدأ الحق الذي ينبغي أن تبنى عليه الحياة. في الجسد ميزان، وفي البيئة ميزان، وفي النفس ميزان، وفي المجتمع ميزان، وفي الكلمة ميزان؛ فإذا تجاوز الشيء حده انقلبت النعمة أذى. الماء حياة، لكن اختلال مقداره غرق؛ والنار دفء، لكن خروجها عن موضعها حريق؛ والحب روح، لكن انفصاله عن الحكمة قد يصير ضعفاً أعمى؛ والقوة حماية، لكن انفصالها عن العدل يصيرها بطشاً؛ والحرية كرامة، لكن انفصالها عن المسؤولية قد يجعلها اسماً مهذباً للفوضى. ليس الخير دائماً في كثرة الشيء، بل في وضعه بقدره، في موضعه، وفي وقته؛ وهذه هي حكمة الميزان.

ثم تلتفت الآيات إلينا التفاتاً مباشراً: ﴿أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾. لم يقل: ألا تخطئوا؛ فالتحطأ عارضٌ من عوارض النقص البشري، أما الطغيان فهو تجاوز الحد مع نشوة القوة واستعلاء النفس. يبدأ الطغيان حين لا يعود الإنسان يرى حداً لرغبته، أو سقفاً لسلطانه، أو حرمةً لحق غيره. والطاغية قبل أن يطغى على الأرض يكون قد طغى في ميزان داخله؛ ضخم نفسه حتى حجب عنه الناس، وضخم حقه حتى غابت عنه حقوقهم، وأطال النظر في قوته حتى نسي مصدرها ونهايتها. وما من ظلم كبير إلا وقد سبقته خيانة صامته للميزان في القلب؛ هناك أولاً تُراد قيمة الذات، وتُنقص قيمة الآخر، ثم تخرج الجريمة إلى الواقع نتيجةً لحسابٍ فاسدٍ استقر في الضمير.

ولهذا لا تكتفي السورة بالنهي عن الطغيان، بل تنتقل إلى الأمر الإيجابي: ﴿وَأَقِمْوْا الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ﴾. إقامة الوزن أبلغ من مجرد استعماله؛ لأنها تعني أن يصبح العدل بناءً قائماً، لا حالةً عابرةً تتبع المزاج، وأن يكون القسط نظاماً يحكم العلاقة، لا مكرمةً يتفضل بها القوي متى شاء. العدل ليس هديةً من صاحب السلطة إلى الضعيف، بل حقٌّ وضعه الله قبل أن يولد القوي والضعيف، وليس فضيلةً اختياريةً تزين الحياة، بل شرطٌ لبقاء معناها الإنساني. وقد يستطيع الإنسان أن يقيم شعائر كثيرةً في حياته، لكن الامتحان الأشد أن يقيم الميزان حين يكون إنقصاه في مصلحته، وأن ينصف خصمه حين يملك القدرة على تشويه صورته، وأن يقول الحقيقة التي لا تخدم هواه، وأن يزن نفسه بالمعيار ذاته الذي يزن به غيره.

وفي كلمة ﴿بِالْقِسْطِ﴾ صرامةٌ أخلاقيةٌ لا تسمح للعدل أن يبقى شعوراً غائماً؛ فالقسط هو أن يصل الحق إلى موضعه، بلا زيادة تصنع محاباةً ولا نقص يصنع مظلمة. وقد يظلم الإنسان وهو يعتقد أنه عادل، لأنه يحمل ميزاناً تميل كفتته الخفية نحو من يحب، أو نحو الجماعة التي ينتمي إليها، أو نحو الفكرة التي يدافع عنها. ومن هنا يحتاج العدل إلى مجاهدة أشق من مجاهدة الخصم: أن تتزع نفسك من داخل الميزان، وألا تجعل الألم الذي أصابك إذناً بأن تظلم، ولا الخطأ الذي وقع فيه عدوك مبرراً لأن تسلبه كل فضيلة، ولا الحب الذي تكنه لصديقك ستاراً يحجبك عن رؤية عيبه. الميزان الإلهي لا يسأل أولاً: مع من تقف؟ بل يسأل: أين يقف الحق؟

ثم تأتي الخاتمة الدقيقة: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. كأن الطغيان هو الاختلال الكبير الظاهر، والإخسار هو ذلك النقص الدقيق الذي قد يتسلل في المعاملات والكلمات والأحكام. قد لا يسرق الإنسان مالاً، لكنه يخسر الميزان حين يقطع من قصة خصمه ما يسيء إليه، ويحذف ما ينصفه؛ وقد لا يضرب أحداً، لكنه يخسر الميزان حين يحمل كلمةً ما لا تحتمل، أو يطالب

غيره بكمالٍ يعفي نفسه منه؛ وقد لا يجلس على عرش طاغية، لكنه يحمل طاغيةً صغيراً في لسانه حين يحتكر الحق لنفسه ويستكثر على الآخرين حق الاعتراض. إن الظلم لا يبدأ دائماً بالسيف، بل قد يبدأ بصفةٍ جائرة، أو خبرٍ مبتور، أو نظرةٍ تقيس الناس بمقدار نفعهم لا بمقدار إنسانيتهم.

وما أجل التدرج البياني في الآيات: ميزانٌ وضعه الله، ثم نهيٌ عن الطغيان فيه، ثم أمرٌ بإقامة الوزن بالقسط، ثم نهيٌ عن إفساده. البداية من الله؛ لأنه واضع المعيار، ثم المسؤولية على الإنسان؛ لأنه المؤتمن على تطبيقه. وهنا يظهر جوهر المأساة البشرية: الإنسان لم يُكَلَّف أن يخترع الحق، بل أن يقيمه، ومع ذلك يترك الميزان الذي وضعه الله ويصنع لنفسه موازين تتغير بتغير مصلحته. فإذا كان قوياً سُمي قبضته نظاماً، وإذا كان ضعيفاً سُمي مقاومته حقاً، وإذا أخطأ من يحب التمس له السياقات، وإذا أخطأ من يكره زعه من كل سياق. أما القرآن فيريد قلباً لا تبدل مقاييسه بتبدل المواقع، لأن الحق الذي يصح حين يكون لك يجب أن يصح حين يكون عليك.

وهكذا لا تعرض السورة الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء بوصفها مناظر منفصلة، بل تجعلها مقدمةً أخلاقيةً للميزان. الكون حولك منضبط، فكن منضبطاً؛ الموجودات ساجدة، فلا تستكبر؛ السماء مرفوعة، فارفع غايتك؛ الميزان موضوع، فلا تطغ. إن التأمل الحقيقي في الكون لا ينتهي إلى الدهشة وحدها، بل إلى المسؤولية؛ فن رأى هذا النظام ثم عاش فوضى أخلاقية لم يبصر من الكون إلا سطحه، ومن أعجب بدقة الأفلاك ثم استهان بدقة العدل لم يفهم الرسالة التي تحملها الأفلاك. ليست الآيات في السماء لتمنحنا مادةً للانبهار فقط، بل لتسألنا في صمت: متى يصبح في ضمائركم شيءٌ من هذا الاتزان؟

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرِّيحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ﴾

بعد السماء المرفوعة، تأتي الأرض الموضوعة؛ وفي هذا التقابل يتشكل المشهد كاملاً: سقفٌ عال يفتح في الروح معنى السمو، ومهادٌ قريب يحمل الجسد ويطعمه. ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، فكان الأرض ليست كلمةً سابحةً في الفضاء فحسب، بل مائدةً مهيأة، وقراراً أعد للحياة، وحضنٌ واسع وضع للكائنات. كلمة ﴿وَضَعَهَا﴾ تفيض بالقرب بعد قوله: ﴿رَفَعَهَا﴾؛ فالسما رفعت لكي يتسع الأفق، والأرض وضعت لكي يستقر الخطو، والإنسان يعيش بين رفعة تدعوه وقرارٍ يحمله. ولو رفعت روحه بلا أرضٍ تحمل ضروراته لتبدد، ولو التصق بالأرض بلا سماءٍ توقف أشواقه لتحول إلى كائنٍ يستوفي حاجاته ويفقد معناه.

وأن تُوضع الأرض ﴿لِلْأَنَامِ﴾ معناه أن الوجود الأرضي لم يُخلق للإنسان منفرد يستأثر به، بل للخلق الذين يدبّون عليه ويتقاسمون مائه وهواءه وثمره. في اللام معنى التسخير والانتفاع، وفي لفظ الأنام توسعة تكسر أنانية الإنسان؛ فالأرض ليست ملك جيل واحد يبدد كنوزها ثم يترك الرماد لمن بعده، وليست حكراً على قوِيّ يمد حدوده بقدر ما تبلغ آتته، ولا مائدة لقوم يجمعون فوقها ما يكفي الآلاف ثم يتركون الآلاف للجوع. إنها موضوعة للأنام، وكل احتكار يطرد الخلق من حقهم فيها صورة من صور الإخلال بالميزان الذي ذكر قبلها. وما أعمق الصلة بين الميزان والأرض: فحين يختل العدل، لا تختفي الثمار غالباً، ولكنها تعجز عن الوصول إلى أفواه الجائعين؛ ويصبح الخلل لا في بخل الأرض، بل في جشع اليد التي أمسكت بخيراتها.

ثم لا تقول السورة: فيها طعام، بل تفتح أمام الحس معرضاً من الجمال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾. والفاكهة ليست ضرورة صرفة لحفظ الحياة، بل زيادة إكرام؛ لونٌ ورائحةٌ وطعمٌ وحلاوة، كأن الرحمة لم ترد للإنسان أن يبقى حياً فقط، بل أرادت أن يتذوق الحياة. كان يمكن للطعام أن يكون مادة واحدة بلا لون ولا عبير، تؤدي وظيفة البقاء ثم تنتهي، لكن الله جعل للثمر أشكالاً شتى، وأودع في كل ثمرة مذاقاً، وفي كل موسم بشارة، وفي كل قشرة سراً مغلفاً. وهذا يعلمنا أن الجمال ليس هامشاً في الخلق، بل لغة من لغات الرحمة، وأن الله لم يخاطب حاجة الجسد وحدها، بل خاطب في الإنسان عيناً تحب اللون، وأنفاً يأنس بالعطر، وذائقة تفرق بين الحلو والحامض، وقلباً يفرح حين يرى الغصن مثقلاً بالعباء.

ثم يُخصّ النخل بالذكر: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾. كأن النخلة تقف في المشهد سيدة مهيبة، تضرب جذورها في الأرض وترفع هامتها في الفضاء، وتحمل رزقها داخل أكمام تستره حتى يحين أوان ظهوره. والأكمام أوعية الثمر وأغطيته؛ وفيها صورةٌ بدیعةٌ للرعاية الخفية، فالنعم لا تولد دائماً مكشوفةً مكتملة، بل تنمو في أغلفتها بعيداً عن العين. كم من عطاءٍ يعده الله للإنسان الآن داخل كَمِّه، وهو يظن أن أغصان أيامه فارغة؛ وكم من رحمة تتكون في ستر القدر، لا يراها لأنه يطالب الثمرة أن تظهر قبل أوانها. إن الذي يحفظ التمر في أكمامه قادرٌ أن يحفظ لك ما لم ينضج بعد من أرزاقك، وليس تأخر الانكشاف دليلاً على غياب العطاء، فقد تكون النعمة موجودةً ولكن الله ألبسها غلاف الزمن حتى تكتمل.

ثم تجمع الآية بين أصل القوت وظلاله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾. الحب غذاء الإنسان، والعصف ما يحيط بالنبات أو ما يكون منه غذاءً للدواب، والريحان رزق طيب أو نبات ذو عبير، فكان المشهد يضم ما يملأ البطن، وما يقتات به الحيوان، وما يملأ الروح رائحةً

وبهجة. الرحمة لا تهمل جزءاً من المشهد: الإنسان له حبه وثمره، والدابة لها عصفها، والحس له ربحانه. وكل ذلك يخرج من أرض واحدة، وماء واحد في أصله، وترابٍ قد يبدو للناظر مادة صامته، ثم إذا مسته يد القدرة خرج منه الحلو والمرّ، واللين والصلب، والطعام والعطر، واختلفت الثمار ولم يختلط على شجرة طعمها.

وفي ترتيب الألفاظ انتقالٌ من العام إلى الخاص، ومن الظاهر إلى المستور، ومن القوت إلى الجمال: أرضٌ للأنام، وفاكهةٌ متنوعة، ونخلٌ يحمل ثمره في الأكمام، وحُبٌ تقوم به الحياة، وريحانٌ تنفس به الروح. إنه كَوْنٌ لا يكتفي بأن يقول لك: عِشْ، بل يقول لك: تذوق، وانظر، واشتم، وتأمل. وإذا كان الإنسان قد اعتاد هذه الأشياء حتى فقد الإحساس بها، فإن القرآن يعيدها إليه كأنها تُخلَق أمامه للمرة الأولى. فالاعتقاد حجابٌ كثيف، يجعل المعجزة اليومية شيئاً عادياً، ويجعل الرغبة الذي اجتمعت فيه الشمس والسحاب والتراب والزرع وأيدي العاملين شيئاً يمر به الإنسان بلا دهشة. وما التدبر إلا أن تنزع عن الموجودات غبار الألفة، فتعود قطرة الماء خبراً عظيماً، وتعود حبة القمح سفينةً حملت إليك رحمة الأرض والسماء.

وعند هذا الموضع يجيء السؤال للمرة الأولى: ﴿فَيَايَا آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. لم يقل: فهل تكذبان؟ لأن النعم ليست خفيةً تحتاج إلى إثبات وجودها، بل قال: ﴿فَيَايَا﴾، وكأن أبواب الإنكار قد أغلقت ولم يبقَ أمام المكذب إلا أن يشير إلى نعمةٍ بعينها ويزعم أنها ليست من الله. بأيّ هذه الآلاء يقع التكذيب؟ أبالقرآن الذي أعطى الوجود معناه؟ أم بالخلق الذي منح الإنسان ذاته؟ أم بالبيان الذي أخرجه من صمته؟ أم بالشمس والقمر اللذين يضبطان زمانه؟ أم بالأرض التي تحمل خطاه؟ أم بالفاكهة والحب والريحان؟ إن السؤال لا ينتظر معلومةً يجهلها الله، بل ينتزع من الإنسان اعترافاً حاول أن يؤجله.

وجاء الخطاب مثني: ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، وسيوضح أن السورة تخاطب الإنس والجن معاً، فيغدو الإنسان داخل جماعةٍ كونيةٍ مسؤولة، لا فرداً وحيداً في محكمة الوجود. وكأن السؤال يُسمع في العالمين، ويرتد صدها من مخلوقٍ إلى مخلوق: أي نعمةٍ يمكن أن تُنفى، وكل ذرةٍ تحمل توقيع الرحمة؟ والتكذيب هنا ليس محصوراً في إنكار اللسان، فقد يعترف المرء بالله قولاً ثم يعيش مع النعمة كأنها ملكٌ ذاتي، فينسب الفضل كله إلى ذكائه، ويرى رزقه نتيجة قوته وحدها، ويستعمل ما أعطي في غير ما أعطي له. إن أسوأ التكذيب أن يقول اللسان: هذه نعمة الله، ثم تقول طريقة العيش: بل هي حقي المطلق أفعل بها ما أشاء.

إن جواب هذا السؤال لا ينبغي أن يكون كلمة تُقال وحدها، بل حياة تُعاد موازنتها. الاعتراف بآلاء الله ليس نشوةً وجدانيةً عابرة، وإنما هو أن يتحول إدراك النعمة إلى شكر، والشكر إلى عدل، والعدل إلى حفظ لما استؤمن الإنسان عليه. من عرف أن الأرض وُضعت للأنام لم يفسدها بأنانيته، ومن عرف أن الميزان وضعه الرحمن لم ينقص حقوق الخلق، ومن عرف أن البيان نعمة لم يلوث لسانه بالكذب، ومن عرف أن القرآن رحمة لم يعامله كصوتٍ يطربه ثم لا يغير طريقه. هناك فقط يصبح الجواب صادقاً؛ لأن أعظم قولٍ يمكن أن تجيب به عن ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هو أن تعيش كإنسانٍ عرف النعمة، فعرف المنعم، ثم استحيا أن يعصيه بما أعطاه.

من صلصال الأرض إلى سؤال الخلود

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

بعد أن رفعت السورة أبطارنا إلى الشمس والقمر والسماء، ثم ردتها إلى الأرض وما يخرج منها من فاكهةٍ وحبٍّ وريحان، تعود بنا إلى أنفسنا، لا لتحديثنا عما نملك، بل عما نحن منه. وهذا الانتقال شديد الأثر؛ لأن الإنسان قد يتأمل النعمة من خارجه، فيرى الأرض مهبأةً له، والثمار موضوعةً بين يديه، ثم يتسلل إليه الوهم بأن الكون مسرحٌ أعد لعظمته الذاتية، فتأتي الآية لتكسر غروره من الجذر: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾. أنت الذي تنظر إلى الأرض كأنك سيدها، مأخوذٌ في أصلك من مادتها؛ وأنت الذي ترفع رأسك مزهواً بعقلك ولسانك وسلطانك، كان ابتداء جسدك طيناً يابساً له صلصلةٌ إذا قُرع، شبيهاً بالفخار الذي تصنعه الأيدي ثم ينكسر إذا سقط.

وليس في تذكير الإنسان بأصله امتحانٌ له، بل إنقاذٌ له من أكبر أوهامه؛ إذ لا شيء يفسد النفس مثل أن تنسى مادتها الأولى، فتوهم أن ما عليها من جاهٍ أو علمٍ أو جمالٍ قد انفصل بها عن بقية البشر، وأن ثوباً من السلطة يستطيع أن يغير أصل الخلقة. ولكن الملوك والفقراء، والقادة والمهمشين، والعلماء والبسطاء، يلتقون جميعاً عند الصلصال؛ ليست لأحد منهم مادةٌ أولى أرفع من مادة الآخر، ولا يحمل جسد المتكبر عنصراً سماوياً لا يوجد في جسد من يحتقره. إن الفروق التي تملأ العيون في الحياة تذوب كلها حين نعود إلى أصل التكوين، ويبقى التفاضل الحقيقي في الذي صنعه الإنسان بإيمانه وتقواه، لا في الطين الذي لم يختره لنفسه.

وكلمة ﴿صَلْصَالٍ﴾ لا تنقل إلى الذهن مادة الخلق وحدها، بل تكاد تسمع معها صوت البيوسة والفراغ، أما التشبيه ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ فيستحضر المشاشة خلف الصلابة الظاهرة. والفخار يبدو متماسكاً، لكنه قابلٌ للكسر؛ وكذلك الإنسان، يمشي في الأرض منتصباً، وقيم المدن، ويخطط لعقودٍ قادمة، ثم تعبر جسده علةٌ دقيقة فتبدد شعوره بالقوة، أو تصيبه كلمةٌ في موضع خفي من قلبه فتتركه محطماً وإن ظل واقفاً أمام الناس. في كل إنسان صلابةٌ يراها الآخرون، وهشاشةٌ لا يعرفها إلا الله؛ وبينهما يعيش امتحانه. وإذا عرف الإنسان أنه فخارٌ لم يحتقر ضعفه، بل حملة إلى خالقه، ولم يغتر بقوته، بل رآها عاريةً مؤقتةً من الرحمن.

ومع ذلك، ليست المعجزة في مادة الصلصال وحدها، بل فيما أراد الله أن يخرجها منها. من هذا الطين أنشأ كائناً يتعلم القرآن، ويملك البيان، ويسأل عن المصير، ويحسّ إلى الأبد. أي انتقال أعجب من أن يصير التراب عيناً ترى النجوم، وعقلاً يحسب مساراتها، ولساناً يصف جمالها، وقلباً يسأل عن خالقها؟ إن الإنسان من جهة جسده ابن الأرض، لكنه من جهة وعيه مفتوح على ما وراءها؛ يحمل ثقل الطين وتوق الروح، تجذبه الشهوة إلى الأسفل، وتناديه الهداية إلى الأعلى. ودراما وجوده كلها قائمة في هذا التوتر: هل يجعل من جسده سلماً ترتقي عليه روحه، أم يجعل من روحه خادمة لنزوات جسده؟

لقد لمست يد الإنسان الصلصال فصنعت منه الفخار، لكن الله خلق من الصلصال صانع الفخار؛ وهنا المسافة التي لا يجوز للعقل أن يغفل عنها بين تشكيل المادة وخلق الحياة. يستطيع الإنسان أن يعيد ترتيب الموجود، وأن يمزج العناصر، وأن ينحت الصورة، لكنه لا يمنح ذرة واحدة سرّ الوجود من عنده. وكلما اتسعت قدرة الإنسان على الصناعة وجب أن يتعمق تواضعه أمام الخلق؛ لأن براعته كلها تعمل داخل مواد وقوانين وعقول لم يصنع أصلها. غير أن الغرور قد يقلب النعمة حجاباً، فيرى الإنسان المصنوع في يده وينسى اليد التي صنعت يده، ويُعجب بما أودعه في الآلة وينسى مَنْ أودع القدرة في عقله.

ثم تضع السورة إلى جانب أصل الإنسان أصل العالم الآخر الذي تخاطبه: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾. المارج لهبٌ مختلطٌ مضطربٌ لا دخان فيه، تداخل ألسنته وتتحرك، وفي هذا اللفظ ما يلائم طبيعة الخلق الخفي وسرعة حركته. فإذا كان الإنسان قد خلق من صلصال يوحى بالثقل والثبات، فإن الجان خلق من لهبٍ يوحى بالخفة والاضطراب، وبذلك يقف أمامنا عالمان مختلفان في المادة، متفقان في الافتقار إلى الخالق، ومشاركان في التكليف وسماع السؤال. اختلاف الأصل لا يعني اختلاف العبودية؛ فالنار ليست أكرم عند الله من الطين بذاتها، كما توهم إبليس حين قاس القيمة بمادة الخلق، وأغفل أن الشرف إنما يكون بطاعة الأمر لا بعنصر الجسد.

وهذا هو الخطأ الأول الذي ولّد الكبر: أن تتحول معرفة الاختلاف إلى دعوى تفوق. قال إبليس في جوهر منطقته: أنا خيرٌ منه لأن أصلي نارٌ وأصله طين؛ فكان أول فساد أخلاقي كبير ناتجاً عن قراءة مادية للإنسان، جعلت قيمته رهينة أصله، ولم تر سرّ التكليف والطاعة. ولا يزال هذا المنطق يتناسل في التاريخ كلها زعم قوم أنهم أرفع بسبب جنسٍ أولون أو نسبٍ أو أرض، وكلما ظن إنسان أن مادة لم يخترها تمنحه الحق في الاستعلاء على مَنْ خلق من المادة الإنسانية نفسها. إن القرآن يذكر اختلاف الأصل بين الإنس والجان، لكنه

يُوحِّدُهُمَا فِي السُّؤَالِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ لِأَن وَحْدَةَ الْمَسْئُولِيَّةِ أَعْلَى مِنْ اخْتِلَافِ الْمَادَّةِ.

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ الْقَلْبُ: كَيْفَ يَكُونُ تَذَكُّرُنَا بِالصَّلَاحِ وَالنَّارِ مِنَ الْآلَاءِ؟ وَالْجَوَابُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ أَنْ يُعَرِّفَكَ اللَّهُ حَقِيقَتَكَ، فَلَا تَضِلَّ عَنْ مَقْدَارِكَ. الْمَعْرِفَةُ بِالْأَصْلِ رَحْمَةٌ لِأَنَّهَا تَحْمِيكَ مِنَ الْغُرُورِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِالْخَلْقِ الْخَفِيِّ رَحْمَةٌ لِأَنَّهَا تَوْسِعُ رُؤْيَاكَ لِلْوُجُودِ فَلَا تَحْصِرُ الْحَقِيقَةَ فِيمَا تَدْرِكُهُ الْحَوَاسِ. ثُمَّ إِنَّ النِّعْمَةَ لَيْسَتْ فِي الصَّلَاحِ لِذَاتِهِ، بَلْ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي سَوَّاهُ إِنْسَانًا، وَلَيْسَتْ فِي النَّارِ لِذَاتِهَا، بَلْ فِي الْإِرَادَةِ الَّتِي أَنْشَأَتْ مِنْهَا خَلْقًا عَاقِلًا مَكْلُفًا. الْمَادَّةُ مَتَوَاضِعَةٌ، لَكِنِ الصَّنْعَةُ مَدْهَشَةٌ، وَالْفَارَقُ بَيْنَهُمَا هُوَ مَوْضِعُ الرَّحْمَةِ وَالْقُدْرَةِ.

وَيَتَكَرَّرُ السُّؤَالُ هُنَا بَعْدَ ذِكْرِ الْأَصْلَيْنِ، كَأَنَّ السُّورَةَ تَوَاجَهَ الْعَالَمَيْنِ مَعًا: أَيُّ خَلْقٍ مِنْكُمْ يَمْلِكُ أَنْ يَنْسِبَ وُجُودَهُ إِلَى نَفْسِهِ؟ هَلْ اخْتَارَ الْإِنْسَانُ طِينَهُ؟ وَهَلْ أَشْعَلَ الْجَانُّ نَارَهُ الْأُولَى؟ هَلْ تَفَاوَضَ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَلَى صِفَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَوْجِدَ؟ إِنْ الْوُجُودُ عَطَاءٌ سَبَقَ الْإِرَادَةَ؛ فَقَدْ وَجِدْتَ قَبْلَ أَنْ تَسْتَطِيعَ طَلْبَ الْوُجُودِ، وَأُعْطِيتَ الْعَقْلَ قَبْلَ أَنْ تَعْقِلَ كَيْفَ تَطْلُبُ الْعَقْلَ، وَمُنَحَّتَ اللِّسَانُ قَبْلَ أَنْ تَمْلِكَ لُغَةً تَشْكُرُ بِهَا. وَكُلُّ مَا تَرَاهُ حَقًّا لَكَ الْيَوْمَ بَدَأَ هِبَةً لَمْ يَكُنْ لَكَ قَبْلُهَا اسْتِحْقَاقٌ. فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي الْقَلْبِ، لَمْ يَعِدِ الشُّكْرُ مَجَامِلَةً دِينِيَّةً، بَلْ صَارَ الِاسْتِجَابَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْوُجْدَانِيَّةُ الْوَحِيدَةُ أَمَامَ سِرِّ الْوُجُودِ.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

من مادة الخلق تنتقل السورة إلى حركة الضوء، ومن الصلصال والنار إلى مشهد الشروق والغروب؛ لكن الخيط الناظم لا ينقطع: فالذي خلق الإنسان والجان هو الذي يدبر لهما المسرح الكوني الذي تتحرك عليه أيامهما. ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ رَبُّ مَشْرِقِ الشمس في أقصى انتقالها، ومشرقها الآخر، وَرَبُّ مَغْرِبِهَا، أَوْ رَبُّ مَشْرِقِ الشمس والقمر ومغربيهما؛ والمعنى في سعته يحتضن تحولات النور وحدود الفصول، ويكشف أن الجهات التي نظنها حقائق ثابتة ليست مستقلة بذاتها، بل مرهوبة لله، محكومة بتقديره.

لم تقل الآية: خالق المشرقين والمغربين، مع أن الخلق ثابت، بل قالت: ﴿رَبُّ﴾؛ والربوبية خلقٌ وتدييرٌ ورعايةٌ وإيصالٌ للشيء إلى كماله. فالشمس لا تُخلق ثم تُترك، والكون لا يُدفع إلى الحركة ثم ينفصل عن سلطان الله، بل كل شروقٍ حادثةٌ تقع بأمره، وكل غروبٍ يجري في علمه، وكل انتقال بين الضوء والظلمة واقعٌ في تدييره. إن الله ليس مبدأً بعيداً بدأ العالم ثم غاب عنه، إنه رَبُّ التحول اليومي الذي تراه، وَرَبُّ الضوء حين يولد على حافة الأفق، وَرَبُّه حين يجمع أذياله وينسحب.

وفي المشرق والمغرب سرٌّ وجداني عميق؛ لأن حياة الإنسان كلها شروقٌ وغروب. تشرق وجوهٌ في أيامنا ثم تغيب، وتولد آمالٌ ثم تحبُو، وتفتح لنا أبوابٌ ثم تغلق، ويدخل مراحل نظنها دائمةً ثم نراها تتحدّر نحو نهايتها. غير أن الآية تعلم القلب أن رَبَّ الشروق هو نفسه رَبُّ الغروب؛ فلا يعني الغياب أن الربوبية توقفت، ولا يعني الأفول أن الرحمة انقطعت. نحن نحب الله حين يشرق ما نريد، لكننا نحتاج إلى معرفته ربّاً حين يغرب؛ لأن الإيمان الذي لا يرى الله إلا في لحظة الإقبال يأتيه عند أول إدبار.

قد يكون المشرق نعمةً ظاهرة، إذ يأتي الضوء وتستيقظ الحركة وتتجدد الفرص، لكن المغرب نعمةٌ كذلك؛ ففيه سكون الأشياء بعد تعبها، وستر الكائنات برداء الليل، وتذكيرٌ بأن النشاط الذي لا يعرف التوقف يستنزف صاحبه. ولو دام النهار لاحتقرت أعصاب الحياة، ولو دام الليل اختنقت في الظلام، فجاء التناوب ميزاناً آخر من موازين الرحمن. نحن نطلب من الحياة أن تظل في إشراقٍ دائم، مع أن الخلق نفسه لا يستقيم إلا بالتعاقب؛ هناك أشياء تنضج في

الضوء، وأشياء لا تتضح إلا في العتمة، وأفكار تولد في الحركة، وبصائر لا تفتح عينيها إلا حين يسكن الضجيج.

والثنية في «المُشْرِقِينَ» و«المَغْرِبِينَ» لا تحصر المعنى بقدر ما تنبه إلى اتساعه؛ فبين أقصى مشرقين مشارق لا تكاد تُحصى، وبين أقصى مغربين مغارب تدرج كل يوم. وهذا يذكّرنا بأن ما نراه ثابتاً في العالم يتحرك في دقة خفية؛ الشمس التي نراها تشرق من الموضع نفسه تنتقل، والظل الذي نألفه يتغير، والفصول تكتب على الأفق اختلافاً هادئة. الزمن لا يقف، وإن توهم الإنسان أنه قادر على تثبيت لحظاته، والأيام تحرك مواضع الضوء في حياته كما تحركها في الأرض.

وحين يقال: «رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ» يُستدعى القلب إلى التسليم في الاتجاهين؛ أن يحمد في الشروق، ويشق في الغروب، وأن يعرف أن الله حين يمنحه لا يخرج عن الحكمة، وحين يحجب عنه لا يخرج عن الرحمة. ليس كل شروق خيراً محضاً في ظاهره، فقد تشرق على الإنسان فتنة تستهويه، وليس كل غروب شراً، فقد يغيب عنه شيء كان بقاءه سيحجبه عن ربه. وما أكثر ما يكننا شمساً غربت من حياتنا، ثم اكتشفنا بعد زمن أن الله كان يهيئ لنا في الجهة الأخرى فجرًا لم نكن نراه؛ فنحن ننظر إلى مغربنا، أما الرحمن فيملك المشرقين والمغربين معاً.

ثم يأتي السؤال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكذِّبَانِ». بأي نعمة في تناوب الضوء والظلام يقع التكذيب؟ أنعمة البداية أم نعمة النهاية؟ أنعمة العمل أم نعمة السكون؟ أنعمة الصيف أم نعمة الشتاء؟ إن الجهل بضالة التفاصيل التي يقوم عليها هذا الاتزان يجعل الإنسان يمر بالشروق كأنه أمر واجب على الكون، مع أنه لو اختلف مقدار الحركة أو المسافة أو الميلان تبدلت شروط الحياة كلها. لكن الاعتياد يسلبنا الدهشة، والسورة تعيد السؤال كي تعيد للكون نصارته الأولى، فنرى الصباح لا بوصفه تكراراً آلياً للأمس، بل بوصفه إذناً جديداً بالحياة.

البحران والبرزخ واللؤلؤ المكنون

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

ترك بنا السورة حواف الأفق، حيث تشرق الشمس وتغرب، وتأخذنا إلى حواف المياه، حيث يلتقي بحران وتبقى لكلٍ منهما خصائصه وحدوده. ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾؛ أرسلهما وأجراهما حتى يلتقيا، والمشهد في ظاهره انفتاح وامتزاج، ماءٌ يندفع إلى ماء، وأمواجٌ لا ترى العين بينها جداراً صلباً. ثم تأتي الحقيقة المدهشة: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾. هناك حدٌ أقامه الله، ليس بالضرورة جداراً تلمسه اليد، بل نظامٌ يمنع أحد البحرين من أن يطغى على الآخر طغياناً يذهب بخصائصه ويهدم التوازن المقصود.

ويعود هنا معنى الميزان في صورة مائية؛ فما سبق أن ظهر في السماء والشمس والقمر يظهر الآن في البحر. الكون ليس نظاماً لأن الأشياء منفصلة لا تلتقي، بل لأنه يعرف كيف يجمع بينها دون أن تتحول العلاقة إلى بغي. البحران يلتقيان، لكن اللقاء لا يعني ابتلاع أحدهما الآخر، يقتربان، ويتداخل مناطقهما، ويبقى البرزخ قائماً بأمر الله. وهذا درسٌ بالغ العمق للحياة الإنسانية: ليست الحدود دائماً قسوة، بل قد تكون رحمةً تحفظ العلاقة من التهام أحد طرفيها، وليس الحب أن يذوب إنسانٌ في آخر حتى يفقد شخصيته، ولا الوحدة أن يحو القوي خصائص الضعيف، ولا الاجتماع أن تتحول الجماعة إلى بحرٍ يبتلع ضامراً أفرادها.

إن البغي هو تجاوز الحد، ولذلك قالت الآية: ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾، فجعلت حركة الماء درساً أخلاقياً للإنسان. البحر الهائل، بقوته وأمواجه وأعماقه، يقف عند الحد الذي أقامه الله، بينما قد يعجز الإنسان عن الوقوف عند حدٍ صغير من حقوق أخيه. كل مأساة في العلاقات تبدأ حين يريد أحد الطرفين لقاءً بلا برزخ، قريباً بلا حرمة، سلطاناً بلا حد، وامتلاكاً بلا اعتراف بوجود الآخر. والبرزخ في النفس هو ذلك الوعي الذي يقول: لي رغبة، لكن لها حدٌ؛ ولي قوة، لكن ليست لي كل الحقوق؛ ولي حب، لكنه لا يبيح لي أن أستعبد من أحب؛ ولي خصومة، لكنها لا تسمح لي أن أهدم إنسانية خصمي.

وليس البرزخ دعوةً إلى القطيعة، فالآية تقول: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قبل أن تقول: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾. هناك لقاءٌ حقيقي، لكن فيه حدٌ حقيقي كذلك؛ وهذه إحدى معادلات الحياة الدقيقة التي

يفسدها الإفراط من الجانبين. فمن الناس من لا يعرف إلا الجدران فلا يلتقي بأحد، ومنهم من يهدم كل جدار حتى تختلط الحقوق وتضيع المسافات اللازمة للكرامة. أما الميزان القرآني فيمنحنا لقاءً لا يلغي التمايز، وقرباً لا يهتك الخصوصية، وتعايشاً لا يشترط أن يصير الجميع نسخة واحدة.

ثم يتجه البصر من سطح البحرين إلى باطنهما: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾. من الماء المتلاطم يخرج الجمال الصلب، ومن الأعماق المعتمة يأتي ما تتزين به الأعناق وتبهج به العيون. واللؤلؤ لا يولد على سطح هادئ تلتقطه اليد بلا عناء، بل يتكون في الصدف، في قرار البحر، وراء طبقات الماء؛ وكأن السورة تهمس للإنسان بأن بعض أجمل عطايا الحياة لا تتكون إلا في العمق، وأن التجارب التي تغمرنا قد تخفي في باطنها لؤلؤة لا تظهر لحظة الألم.

كم من حكمة لم تتكون في قلب إنسان إلا لأن جرحاً دخل إليه، ثم التف عليه الصبر طبقة بعد طبقة حتى صار الجرح لؤلؤة. وكم من بصيرة لم تخرج إلا من بحر الحيرة، وكم من رقة نضجت في قلب عرف الانكسار، وكم من إنسان كان سيعيش على سطح نفسه لولا أن ابتلاءً أنزله إلى الأعماق، فوجد هناك ما لم يكن يراه في ضوء العافية. ولا يعني هذا أن الألم محبوب لذاته، بل إن رحمة الله أوسع من أن تترك الألم عقيماً؛ فقد يجعل من موضع الوجع باباً إلى معرفة، ومن الصدفة التي أغلقت على الجرح موضعاً يتخلق فيه الجمال.

وفي اللؤلؤ والمرجان امتدادٌ لمعنى الفاكهة والريحان؛ فالرحمن لا يمنح الإنسان ما يبقِي حياته فقط، بل يمنحه ما يجملها. البحر ليس خزان ماءٍ ومصدر غذاءٍ فحسب، بل مستودعُ زينةٍ مخبوءة. والجمال هنا يأتي من مكانٍ مهيّبٍ مخيف؛ فالبحر الذي قد يغرق السفن يحمل في جوفه اللؤلؤ. وهذا الجمع بين الهيبة والجمال يربّي في القلب رؤيةً أكثر اكتمالاً للوجود: لا تجعل خوفك من الأعماق ينسبك كنزها، ولا يجعل إعجابك بالكنوز تنسى هيبة البحر. العالم ليس بسيطاً أحادي اللون، بل تتجاور فيه النعمة والامتحان، والجمال والخطر، والقرب والبرزخ.

ويتكرر السؤال مرتين في هذا المقطع: مرة بعد انتظام البحرين والبرزخ، ومرة بعد خروج اللؤلؤ والمرجان. فكأن للسؤال موضعين: موضع النظام الذي يحفظ الحياة، وموضع الجمال الذي يزينها. نحن ننتبه عادةً إلى النعمة التي تسرّ الحس، كاللؤلؤ والمرجان، وقد لا ننتبه إلى نعمة الحدود والقوانين التي تحفظ الماء والبيئة والتوازن؛ لذلك تساوي السورة في موضع الاعتراف بين الرحمة التي تُرى زينةً والرحمة التي تعمل نظاماً. ليس كل عطاءٍ شيئاً تمسكه اليد؛ قد تكون أعظم العطايا حداً يمنع الطغيان، وقانوناً يضبط الحركة، وبرزخاً لا تراه العين لكنه يحفظ عالماً كاملاً من الفساد.

السفن التي تمشي فوق الخوف

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

بعد البحر وما يختزنه من اللؤلؤ والمرجان، تظهر على صفحته السفن: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾. الجواري هي السفن التي تجري فوق الماء، وقد سماها بالصفة التي تمنحها الحياة والحركة، فلا تبدو كالأجسام جامدة، بل كائنات تشق الزرقة وتمضي. وهي منشآت مرتفعة، شاهقة كالأعلام؛ أي كالجبال، حتى ليبدو المشهد كأن جبالاً انفصلت عن اليابسة وأخذت تسير فوق البحر. وهذه الصورة وحدها كافية لإيقاظ الدهشة: كيف تحمل المادة السائلة بناءً ضخماً مثقلاً بالناس والمتاع، ثم تجري به إلى جهات بعيدة؟

ولكن التعبير يبدأ بقوله: ﴿وَلَهُ﴾. والسفن في ظاهر الأمر من صناعة الإنسان؛ قطع أخشابها أو صهر معادنها، ورسم هيكلها، وأقام محركاتها، وقادها في الماء، فلماذا نسبها القرآن إلى الله؟ لأن صناعة الإنسان نفسها واقعة داخل عطاء الله: المادة له، والعقل الذي اكتشف خصائصها له، والسنن التي تجعل الطفو ممكناً له، والبحر الذي يحملها له، والرياح التي دفعت سفن الأقدمين له. الإنسان يجمع الأسباب، لكنه لم يخلق خاصية واحدة من خصائصها؛ يستعمل القانون، لكنه لم يكتبه في مادة الكون؛ يتعلم كيف تجري السفينة، لكنه لم يأمر الماء أول مرة أن يحملها.

وهذا يصحح مفهوم الإنجاز في النفس: ليس المطلوب أن ينكر الإنسان عمله أو يجنس عقله، بل أن يرى عمله داخل الفضل الأكبر الذي أحاط به. التواضع ليس أن تقول: لم أفعل شيئاً، وقد فعلت؛ بل أن تقول: فعلت بما أعطيت، وتعلت بعقل لم أصنعه، ونجحت داخل عالم هيا الله لي قوانينه وفرصه. أما الغرور فهو أن يأخذ الإنسان السطر الأخير من قصة النجاح، وينسب الكتاب كله إلى نفسه، متناسياً آلاف النعم الصامته التي جعلت خطوته ممكنة.

والسفينة رمزٌ بليغ للإنسان نفسه؛ فهي شيءٌ محدودٌ يحمل حياته فوق قوة هائلة لا يملكها. بينه وبين الغرق ألواح أو معدنٌ ونظامٌ دقيق، وتحت أعماق لا تستطيع قدماه الوقوف فيها، ومن حوله أفقٌ قد لا يرى له نهاية. وكذلك يعيش الإنسان في الدنيا: يحمل مشروعاته وأحبه وآماله في سفينة الأسباب، ويظن حين يهدأ البحر أنه سيد الرحلة، حتى تأتي موجة واحدة فترده

إلى حقيقته. الأسباب ضرورية، لكن تأليها غفلة؛ والسفينة تنجي بإذن الله، لكنها لا تملك وعد النجاة من ذاتها.

وكم في قوله: ﴿الْجَوَارِ﴾ من انسجام صوتي مع حركة السفن؛ فالكلمة نفسها تناسب، ثم يأتي وصفها ﴿الْمُنْشآتُ﴾ ليمنحها الارتفاع والضخامة، ثم يبلغ التصوير ذروته في قوله: ﴿كَأَلْأَعْلَامِ﴾. حركة وارتفاع وهيب في ألفاظ قليلة؛ وهذه من خصائص البيان القرآني الذي لا يصف المشهد من خارجه فقط، بل يبينه في الإيقاع. ترى السفن وهي تجري، ثم ترتفع في خيالك كأنها جبال عائمة، ثم يردك افتتاح الآية إلى مالكتها الحقيقي: ﴿وَلَهُ﴾.

والعجيب أن الإنسان، وهو المخلوق من صلصال، استطاع بالبيان والعلم أن يقيم هذه المنشآت في البحر، وهنا تتصل الآيات مرة أخرى بمطلع السورة. الذي علم الإنسان البيان فتح له أبواب نقل المعرفة، وبالبيان تراكت خبرات الملاحة والبناء والحساب، حتى صارت السفينة الواحدة ثمرة عقول كثيرة وأجيال متعاقبة. فكل حضارة في حقيقتها بناءً بياني؛ ينقل السابق إلى اللاحق ما عرف، فلا يبدأ كل جيل من الصفر. وحين يفسد البيان بالكذب والجهل، لا تتعطل الأخلاق وحدها، بل تنصدع قدرة الإنسان على بناء العالم.

ثم يعود السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ﴾. أبالبحر الذي حمل، أم بالعقل الذي صنع، أم بالقانون الذي ضبط الطفو، أم بالسفينة التي قربت المسافات، وحملت الأرزاق، ووصلت بين الشعوب؟ إن النعمة هنا ليست طبيعية محضة ولا إنسانية محضة، بل هي لقاء بين تسخير الله وسعي الإنسان. وهذا من أجمل معاني الاستخلاف: أن يمنح الله الكون قابليات، ويمنح الإنسان عقلاً، ثم يدعوه إلى اكتشاف تلك القابليات وتعمير الأرض بها. فالعمل البشري لا ينافس النعمة الإلهية، بل يكشف وجهاً من وجوهها؛ وكلما أحسن الإنسان الصنعة ظهر مقدار ما أودع الله في عقله وفي العالم من إمكانات.

غير أن السفينة مهما ارتفعت كالجبل تظل محمولة على ماء، وكل منشأة مهما عظمت تظل معرضة للزوال. ولهذا، بعد أن تبلغ صورة القوة البشرية ذروتها في هذه السفن المنشآت، ستأتي السورة بالحقيقة التي تخفض كل علم بشري، وكل جبل عائم، وكل جسد متماسك، وكل مجد يظن صاحبه أنه لا يغرب: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. كأن السفن تمضي بنا الآن إلى شاطئ الحقيقة الأخيرة؛ فليس السؤال: كم بلغ ارتفاع ما بنينا؟ بل: ماذا يبقى منا حين تنتهي الرحلة، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام؟

حين يسقط كل شيء ويبقى الوجه

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ﴾

هكذا، بعد أن امتلأت صفحات السورة بالشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء والأرض، والفاكهة والنخل، والبحرين واللؤلؤ والمرجان، والسفن الشاهقة كالجبال، تأتي جملة قصيرة فنجرف من القلب وهم الدوام كله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. لا تحتاج الحقيقة الكبرى إلى شرح طويل؛ فالفناء لا يستثني أحداً كي تكثر الآية من التفصيل، ولا يراعي ما نسجه البشر بينهم من مراتب وألقاب. كلمة ﴿كُلُّ﴾ تمر على الملوك في قصورهم، والفقراء في أكواخهم، والعلماء في كتبهم، والمحاربين في حصونهم، والعشاق في وعودهم، والأطفال في براءتهم؛ لا تقف أمام عرش، ولا تخرف عن كوخ، ولا تسأل الإنسان كم أحب الحياة قبل أن تمضي به إلى نهايتها.

وجاء التعبير بقوله: ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾، ولم يقل: كل ما عليها؛ لأن السياق يواجه أصحاب الوعي الذين قد يخدعهم وعيهم عن حقيقتهم، ويخص بالخطاب أولئك الذين يمشون فوق الأرض ويملكون فيها ويخاضمون من أجلها، فيذكّرهم بأن إقامتهم فوقها ليست إقامة مالك أبدي، بل عبور ضيق. إن حرفاً واحداً، هو ﴿عَلَيْهَا﴾، يعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان والأرض؛ فأنت عليها ولست منها وحدها، ومهما امتدت جذورك فيها ستغادر سطحها إلى باطنها، ومهما جمعت من مساحاتها فلن تحمل معك منها إلا موضعاً يضم جسدك. الأرض التي يتقاتل الناس على حدودها ستطوي أجساد المتقاتلين جميعاً، والبيوت التي يتفاخرون باتساعها ستنتقل إلى غيرهم، والأسماء التي يظنون أنها ملأت الدنيا ستخفت شيئاً فشيئاً حتى تصبح أثراً في كتاب أو نقشاً على حجر.

ولم تقل الآية: سيموت، بل قالت: ﴿فَانٍ﴾، فجاء اسم الفاعل كأن الفناء وصف ملازم للمخلوق منذ وجوده، لا حادثه تقع عليه في آخر الطريق فقط. نحن لا نبدأ ثابتين ثم يفاجئنا الزوال، بل نبدأ رحلة الزوال منذ اللحظة الأولى؛ كل يوم يمضي يأخذ معه جزءاً من أعمارنا، وكل نمو في الجسد يحمل في باطنه اقتراباً من النهاية، وكل صباح جديد ليس زيادة خالصة، بل هو أيضاً يوم انقضى من العدد المكتوب. الطفل الذي يفرح أهله بخطوته الأولى قد وضع

قدمه الأولى كذلك على طريق الفناء، والعمر الذي نعدّه صعوداً إلى النضج هو من جهة أخرى انحدارٌ هادئ نحو الأجل.

لكن السورة لا تقول ذلك لتصب في القلب ظلمة العدم، ولا لتدفع الإنسان إلى ازدراء الحياة؛ بل لتخلصه من عبادتها. إن الذي ينسى الفناء يحمل الأشياء المؤقتة أكثر مما تحتمل، فيطلب من المال أماناً أبدياً، ومن الناس وفاءً لا يتبدل، ومن الجسد شباباً لا يذبل، ومن السلطة حصناً لا يُقتحم؛ فإذا خانت طبيعة الأشياء اتهم الوجود كله بالقسوة. أما من عرف أن كل ما عليها فان، فإنه يحب دون أن يؤلّه مَنْ يحب، ويملك دون أن يملكه ما في يده، ويفرح دون أن يظن أن الفرح عقدٌ دائم، ويحزن دون أن يظن أن الحزن قدرٌ أبدي. معرفة الفناء لا تقتل البهجة، بل تنقيها من وهم الامتلاك؛ تجعلك تقبّل اللحظة وأنت تعرف أنها عابرة، وتشكر الصبحة لأن بقاءها ليس واجباً، وترفق بالناس لأنك وإياهم تمضون في طريقٍ قصير.

إن المأساة ليست أن يفنى الفاني؛ فهذه طبيعته، وإنما المأساة أن يعلّق الإنسان قلبه بالفاني كما لو كان باقياً، ثم يندهش حين يسقط. كل انكسارٍ كبير في الحياة يكشف مقدار ما منحناه للمخلوق من صفات لا يملكها؛ ظنناه لا يتغير فتغير، أو لا يرحل فرحل، أو لا يخذل نخذل، أو يستطيع أن يملأ الفراغ كله فعجز. لم يكن المخلوق دائماً هو الذي خدعنا، بل قد نكون نحن الذين ظلمناه حين طلبنا منه أن يكون إلهاً صغيراً يحفظنا من كل ألم. ولهذا لا تكتمل حقيقة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ إلا بالآية التي تليها: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ فالسورة لا تنزع عنك الفاني لتترك في الفراغ، بل تنزع يدك منه لتضع قلبك عند الباقي.

ما أرحم الواو في قوله: ﴿وَبَقِيَ﴾؛ فهي ليست انتقالاً نحوياً فحسب، بل جسرٌ يعبر عليه القلب من مأساة الزوال إلى سكينّة البقاء. كل شيءٍ يتراجع عن المشهد، الوجوه التي عرفناها، والأصوات التي أحببناها، والبيوت التي حفظت خطواتنا، والأحلام التي قاتلنا من أجلها، ثم لا يبقى فراغٌ أصم، بل يبقى الله. وهذا وحده يمنح الفناء معنىً يمكن للقلب أن يحتمله؛ فلو كان كل شيءٍ يفنى ولا يبقى إلا العدم، لكنت الحياة ومضةً ساخرةً في ظلمة بلا جواب، لكن الفاني ينتهي إلى الباقي، والمخلوق يعود إلى الخالق، والرحلة لا تسقط في اللاشيء، بل تنتهي إلى الذي بدأها بالرحمة.

﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾؛ والوجه صفة ثابتة لله على ما يليق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وفي الإضافة إلى ﴿رَبِّكَ﴾ قرب يسكب الأنس في قلب المخاطب؛ لم يقل: ويبقى وجه الله في هذا الموضع، بل ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وكأن الذي يبقى ليس حقيقةً كونيةً بعيدةً عنك، بل ربك الذي خلقتك ورباك وعلبك وهداك. إن بقاء الله ليس مجرد قضية عقلية ثبت استحالة الفناء عليه سبحانه، بل هو ملجأ وجداني: ما دام ربك باقياً، فلا تضيع عنده دمة، ولا ينسى لديه معروف، ولا يذهب في علمه ألم صبرت عليه، ولا يموت الرجاء الذي عقدته به.

وعندما يتأمل الإنسان قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ يدرك أن قيمة الأعمال لا تأتي من صورتها العابرة، بل من الجهة التي قصدت بها. العمل الذي يُراد به وجه الناس يفنى حين تتغير وجوههم، والثناء الذي يُطلب من ألسنتهم يموت حين تصمت الألسنة أو تنقلب، والمجد الذي يُبنى في ذاكهم يتآكل حين تنسى الأجيال؛ أما ما أُريد به وجه الله فإنه يتصل بالباقي، فيكتب له من البقاء بقدر إخلاصه. قد تكون الكلمة صغيرةً في عين الخلق، لكنها إذا خرجت لله لم تضع، وقد يكون العمل صاحباً تملأ أخباره الآفاق، لكنه إذا لم يتجاوز رغبة صاحبه في الظهور انتهى بانتهاء التصفيق.

ثم تصف الآية ربنا بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ الجلال الذي يملأ القلب هبة، والإكرام الذي يملؤه رجاء. لو ذكر الجلال وحده لارتعد القلب ولم يجد موضعاً للأنس، ولو ذكر الإكرام وحده ربما استرسل في الأمان ونسي الهبة؛ فجاء الوصفان ميزاناً آخر، يربّي العبد بين الخوف والمحبة. الله جليل لا يُحاط بعظمته، كريم لا تنفذ مواهبه؛ يطاع لأن له الجلال، ويُحب لأن منه الإكرام، ويُخشى عدله، وترجى رحمته. ومعنى الإكرام هنا أوسع من أن يعطيك نعمةً عابرة؛ فقد أكرمك بأن خلقتك، ثم أكرمك بأن علمك، ثم أكرمك بأن لم يتركك للفناء المجرد، بل دعاك إلى دار البقاء.

والتأمل في اجتماع الفناء والجلال والإكرام يكشف سرّاً لطيفاً: إن سلب الأشياء منك بالموت ليس مناقضاً لكرم الله؛ لأن الكرم الإلهي لم يعدك بأن يجعل الفاني باقياً، بل أعد لك ما هو أبقي. نحن نرى الموت حرماناً لأن أبصارنا معلقة بما نترك، لكن المؤمن يتعلم أن ينظر كذلك إلى ما يقدم عليه. الجلال يأخذ منك الحياة حين يحين أجلها، والإكرام يفتح لك بعدها حياة لا يهددها الأجل؛ الجلال يطوي صفحة الدنيا، والإكرام لا يضيع حرفاً صالحاً كتبت فيها.

ولهذا يجيء السؤال بعد ذكر الفناء والبقاء: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . وقد يبدو الفناء لأول وهلة غريباً عن مقام النعمة، لكن أليست معرفة الحقيقة نعمة؟ أليس من الرحمة أن يخبرك الله بزوال الطريق قبل أن تتخذ الطريق وطناً؟ أليس الموت نفسه حداً يمنع الشر من أن يصير أبدياً، والطغاة من أن يخذلوا فوق صدور الناس، والألم من أن يستمر بلا نهاية؟ لو لم يكن للموت باب، ل بقي الجرح مفتوحاً إلى الأبد، وبقي الظالم في سلطانه، وبقي المتألم حبيس جسده. الفناء لا يصبح رحمة إلا لأن وراءه الباقي العادل الكريم؛ أما في ضوء الآخرة، فهو كسرٌ للقيد، وردٌ للحقوق، ونقلٌ للإنسان من زمن الامتحان إلى دار الجزاء.

كُلُّ الْقُلُوبِ مَمْدُودَةٌ إِلَيْهِ

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَيَايَ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾

بعد أن تنزع السورة صفة البقاء عن كل مخلوق، تكشف وجهاً آخر من وجوه افتقاره: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. كلهم سائلون؛ الملائكة في عليائها، والإنس والجن في أرضهم، والمؤمن الذي يعرف إلى من يرفع حاجته، والغافل الذي قد يجحد بلسانه بينما تسأل كل خلية في جسده ربه أسباب البقاء. بعض الخلق يسأل بالمقال، وبعضهم يسأل بالحال، وبعضهم يسأل باضطراب الفطرة وإن أنكر في ساعة الرخاء. الشجرة تسأله ماءها بلسان يبسها، والأرض تسأله مطرها بتشققتها، والجنين يسأله تمام خلقه من وراء الحجب، والمريض يسأله العافية بأنين جسده، والقلب يسأله السكينة بذلك الفراغ الذي لا تملؤه الأشياء.

لم تقل الآية: يسأله المحتاجون؛ لأن هذا الوصف قد يوهم أن ثمة من خرج من دائرة الحاجة، بل قالت: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فاحتوت الجميع. كل مخلوق فقير، وإن اختلفت صور الفقر؛ فالغني يسأل دوام النعمة وحفظها، والفقير يسأل حصولها، والعالم يسأل فهم ما خفي عنه، والجاهل يسأل بداية المعرفة، والقوي يسأل بقاء قوته، والضعيف يسأل من يسنده. لا توجد منزلة يبلغها المخلوق فيستغني بها عن الله؛ لأن وجوده نفسه ليس شيئاً حصل عليه ثم صار مستقلاً به، بل هو مدد متجدد يبقيه الله لحظةً بعد لحظة.

والإنسان يحب أن يتخيل نفسه معطياً لا سائلاً، خصوصاً حين تتكاثر في يده الأسباب، لكنه لو أنصف لعلم أن كل عطاءٍ يخرج به يسبقه ألف عطاءٍ تلقاه. يعطي من مال رزقه الله، ويبدل خلقها الله، وبقوة حفظها الله، وفي لحظة أذن الله أن يبقى فيها حياً. حتى السؤال الذي يرفعه إلى ربه نعمة أخرى؛ لأن الله هو الذي فتح له باب الدعاء، وألممه أن ينادي، ووعدته أن يسمع. نحن فقراء إليه حتى في الطريقة التي نعترف بها بفقرنا، وعاجزون عن الوصول إليه لولا أنه دلنا عليه.

وفي قوله: ﴿يَسْأَلُهُ﴾ معنى القصد المباشر؛ فكل الطرق تنتهي إلى بابه، وإن وقف الخلق بعضهم على أبواب بعض. قد تسأل الطبيب علاجاً، وتسأل الصديق عوناً، وتسأل العالم علماً، لكن هؤلاء جميعاً أسبابٌ فقيرةٌ مثلك، لا يملكون من أنفسهم ضمناً لما يعدون. لا يطلب القرآن من الإنسان أن يهجر الأسباب، بل أن ينظف قلبه من عبادتها، يأخذ الدواء ويعرف أن

الشفاء من الله، ويعمل للرزق ويعرف أن الفتح من الله، ويستعين بالناس ولا يعلّق مصيره بهم. السبب أداة، أما التعلق فعبادة، وكم من إنسان أمسك بالأداة حتى نسي اليد التي أودعت فيها أثرها.

ثم تأتي الجملة المهمة: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. ليست الأيام هنا أيام تعبٍ أو انتقالٍ بالنسبة إلى الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما المعنى أن آثار تدييره لا تنقطع عن خلقه: يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويحجر كسراً، ويهدي ضالاً، ويرد غائباً، ويولد طفلاً، ويطوي عمرًا، ويفتح باباً، ويغلق آخر بحكمة. لا تمر لحظة على العالم وهو مهملٌ أو خارجٌ عن سلطان الله؛ فالكون ليس آلةً قديمةً تدور وحدها، بل كل ما فيه قائمٌ بإمداده وتقديره.

كم من إنسان نام مهموماً، وكان الله في أثناء ليله يهيئ له مخرجاً لا يعلم به؛ وكم من بابٍ ظنه مغلقاً إلى الأبد، وكانت الأقدار تمضي من طريقٍ خفيةٍ لتفتح له ما هو خير منه؛ وكم من مكروبٍ رأى المشهد قد اكتمل ضده، بينما كان شأن الله في الغيب يعيد ترتيب التفاصيل التي لا يراها. إننا نحكم على القصة من الصفحة التي نعيشها، والله يعلم الكتاب كله؛ نرى اللحظة جامدةً في ألمها، بينما تديره لا يتوقف. ولذلك ليس الانتظار فراغاً لمن آمن بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؛ فقد يكون ظاهر الحياة ساكناً، لكن الرحمن يعمل لك في مساحاتٍ لا تصل إليها عيناك.

والآية تحرر القلب من وهمن متقابلين: وهم اليأس الذي يظن أن الواقع أغلق احتمالاته كلها، وهم الغرور الذي يظن أن النعمة استقرت لصاحبها ولن تتغير. فإدام الله كل يومٍ في شأن، فلا يستحيل على قدرته تبديل الحال، ولا ينبغي لأحد أن يأمن تقلب النعم إذا كفر بها. قد يصبح الخائف آمناً، والمطارد عزيزاً، والمكسور جابراً لغيره، وقد يصبح صاحب القوة أثراً يروى. التاريخ في ضوء الآية ليس كلمةً صماء، بل نهرٌ يجري تحت سلطان الله، وموازن الأرض مهما بدت نهائيةً ليست إلا لحظةً في شأنٍ يتلوه شأن.

غير أن هذه الحركة الدائمة في شؤون الخلق لا تعني العبث أو التردد؛ تعالى الله عن ذلك، بل هي تنفيذٌ لمشيئته القديمة وعلمه المحيط في أوقاتٍ قدّرها بحكمته. الجديد يقع لنا نحن؛ نحن الذين ننقل من حال إلى حال، وتفتح أمامنا الأحداث تبعاً، أما علم الله فلا يسبقه جهل، ولا يفاجئه حادث، ولا يضطره شيءٌ إلى مراجعة تدييره. وهذا يمنح المؤمن طمأنينةً عميقة: لا يوجد في حياته طارئٌ على علم الله، ولا سقطةٌ أفلتت من تقديره، ولا ألمٌ وقع في زاويةٍ لم يبلغها بصره.

وما أعجب اجتماع الآيتين: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ثم ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. الخلق يفسنون، لكن أفعال الربوبية لا تنقطع؛ الأجيال تنصرف، والتدبير باقٍ؛ الوجوه تتغير، والباب واحد؛ السائلون يموتون، والكريم الذي سأله لا يفنى. يمضي قوم كانوا يظنون أن العالم يتوقف عند غيابهم، ثم يأتي غيرهم، وتبقى الشمس تشرق، والأرض تنبت، والأقمار تجري، والله يدير الجميع. ما أضال غرور الإنسان أمام هذه الحقيقة، وما أعظم راحته كذلك؛ فالعالم لا يقوم على كتفيه، وليس عليه أن يحمل الكون وحده. عليه أن يعمل بما يستطيع، ثم يسلم ما لا يستطيع لمن لا يعجزه شيء.

ثم يسألنا الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أليست من أجل النعم أن يكون الذي يسأله الخلق حياً لا يموت، كريماً لا تنفذ خزائنه، قريباً لا يختلط عليه صوت بصوت، قادراً لا تتزاحم عليه الحاجات؟ إن البشر إذا كثرت عليهم الأسئلة ضاقوا، وإذا تزايدت المطالب عجزوا، وإذا أعطوا واحداً ربما نقص ما لديهم عن آخر؛ أما الله فتسأله الخلائق كلها في اللحظة الواحدة، على اختلاف ألسنتها وحاجاتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تنقص خزائنه عطية، ولا يخطئ دعاء طريقه إليه.

النداء الذي لا مهرب منه

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

بعد الرحمة التي علّمت، والقدرة التي خلقت، والربوبية التي دبرّت، يأتي صوت الحساب: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾. وليس معنى الفراغ هنا أن شيئاً كان يشغل الله عن شأن، تعالى عن ذلك؛ فهو لا يشغله شيء عن شيء، وإنما هو وعيدٌ يفيد القصد إلى الحساب والجزاء قصداً لا يفلت منه أحد، كما تقول العرب لمن تهدده: سأنفِرك لك. هكذا يتحول الخطاب من عرض النعم إلى مواجهة المسؤولية، لأن الرحمة التي تمنح الإنسان وجوده وهدايته لا تلغي عدلاً يسأله عما صنع بما مُنح.

وسُمّي الإنس والجن ﴿الثَّقَلَانِ﴾ لما لهما من شأن وتكليف، أو لثقلهما في الأرض، وكأن اللفظة تجمع بين التكرّم والمسؤولية. أنت لست ذرةً مهملةً تمر في الكون بلا أثر؛ إن لأفعالك وزناً، ولكلماتك ثقلًا، ولنياتك امتداداً يتجاوز اللحظة التي وُلدت فيها. قد ينسى الإنسان كلمةً قالها، لكنها تكون قد استقرت في قلب غيره جرحاً أو نوراً؛ وقد يظن أن موقفاً صغيراً انقضى، بينما امتدت نتائجه في حياةٍ أخرى. نحن أثقل في العالم مما نتصور، والحساب هو اللحظة التي ينكشف فيها الوزن الحقيقي لما استصغرناه.

وفي صيغة ﴿سَنَفْرُغُ﴾ استقبالٌ يقرب الموعد؛ فالقيامة ليست فكرةً بعيدةً معلقةً في آخر الزمن، بل حقيقةً مقبلةً، وكل ما هو آتٍ قريب. الإنسان يضع الموت والحساب في زاويةٍ بعيدة من وعيه كي يستطيع أن يسترسل في شهوته، لكن القرآن يرد المستقبل إلى صدر المشهد. إنك لا تسير في طريقٍ مفتوح بلا نهاية؛ هناك موعد، وليس أخطر من موعدٍ تعرف أنه آتٍ ولا تعرف متى تصل إليه.

وقد يتساءل القلب مرةً أخرى: كيف يعقب الوعيد سؤالُ الآلاء؟ وكيف يكون الحساب من النعم؟ لكنه لو لم يكن حساب، لاستوى المصلح والمفسد، والقاتل والقتيل، والخائن والأمين، ولصارت الحياة مسرحاً يفوز فيه من امتلك أداة البطش ثم خرج بالموت من كل تبعة. الحساب رحمةٌ بالمظلوم، ورحمةٌ بالحق، بل رحمةٌ بالإنسان نفسه؛ لأنه يثبت أن اختياراته ليست عبثاً، وأن كرامته بلغت أن تُحسب أفعاله ولا تُهمَل. المخلوق الذي لا يُسأل عن الخير

والشر كائنٌ لا وزن لإرادته، أما الإنسان فقد جعله الله مسؤولاً لأنه منحه عقلاً وبيناً وقدرةً على الاختيار.

إن الوعيد رحمةً كذلك قبل وقوع العذاب؛ لأنه جرسٌ يوقظ الغافل ما دام الباب مفتوحاً. لم يأخذ الله الإنسان على غفلة، بل أرسل إليه الآيات، وكرر عليه السؤال، وأخبره بالموعد، وأمله ليعود. وما العقوبة التي تسبقها كل هذه النداءات إلا عدلٌ بعد استنفاد الأعداء. في الدنيا لا يزال بإمكانك أن تخفف ثقل ذنبك بتوبة، وأن ترد المظلمة، وأن تصلح الكلبة، وأن تغير الطريق؛ أما حين يأتي الفراغ للحساب، فقد انتهى زمن العمل وبدأ زمن انكشافه.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبُونَ﴾

ثم يتسع النداء حتى يملأ السماوات والأرض: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾. إنه نداءٌ لجماعتين عرفنا الإرادة والاختيار، وظننا في لحظات الغرور أن المعرفة والقوة تفتحان لهما كل باب. ﴿إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾؛ جربوا أن تخرجوا من أرجاء هذا الملك، وأن تعثروا على جهةٍ لا يبلغها سلطان الله، أو بقعةٍ تسقط فيها المسؤولية عنكم. الأمر هنا للتحدي وإظهار العجز، لا لفتح طريق الحرب.

إن الإنسان منذ أقدم عصوره يحلم بتجاوز حدوده؛ عبر البحار، وصعد الجبال، واخترق الجو، ومدّ آتاه إلى الفضاء، وهذا كله من آثار العقل الذي وهبه الله، ولا تعارض بين الآية وبين ما يبلغه الإنسان من استكشاف بإذن الله؛ فالآية لا تنكر قدرته على الانتقال في أجزاء الكون بما آتاه الله من علمٍ وسلطان، وإنما تنفي أن ينفذ هارباً من ملك الله أو خارجاً عن قضائه. كلها اتسعت معرفته بالأقطار، اتسعت معرفته بكونه لا يزال داخل الملك؛ ينتقل من آيةٍ إلى آية، ومن فضاءٍ خلقه الله إلى فضاءٍ آخر خلقه الله، ولا تقع قدمه في موضعٍ ليس لله.

وهنا تظهر مفارقة الغرور العلمي: قد يظن الإنسان أن اتساع أدواته يقلل حاجته إلى الله، مع أن كل كشفٍ جديد يزيد مساحة ما يراه من خلقه، ويزيد عدد القوانين التي لم يضعها بنفسه. الصاروخ الذي يخرج من مجالٍ إلى مجالٍ لا يخرج من سلطان الرحمن، والعقل الذي يحسب طريقه لا يخلق الرياضيات التي قام عليها الحساب، والطاقة التي تدفعه ليست من صنعه في أصلها. يستطيع الإنسان أن يعبر مسافة، لكنه لا يستطيع أن يعبر من العبودية إلى الاستقلال، ويمكنه أن يبدل موقعه في الكون، لكنه لا يبدل موقعه الوجودي: مخلوقٌ فقيرٌ محاطٌ بعلم خالقه وقدرته.

﴿لَا تَفْذَوْنَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ والسلطان قوة أو حجة أو إذن وعلم يمكن من النفاذ، وكل ذلك مرده إلى الله. فما من قدرة حقيقية إلا وهي فرع من الإقدار، وما من علم إلا وهو قطرة مما علم الله. وفي سياق القيامة يصبح المعنى أشد مهابة: لا سلطان لكم يخرجكم من قبضة الحساب، ولا حجة تبطل حق الله عليكم، ولا قوة تشق لكم منفذاً خارج ملكه. الجهات كلها مغلقة على العدل، فلا خلف تهربون إليه، ولا فوق تصعدون نحوه، ولا تحت تختبئون فيه.

كم يركض الإنسان في الدنيا هرباً من نفسه قبل أن يهرب من الحساب؛ يبدل الأماكن كيلا يواجه خطأه، ويمأ وقته بالضجيج كيلا يسمع صوت ضميره، ويحشد الأعذار كيلا يقول: ظلمت أو قصرت أو خنت. لكنه كلما نفذ من مكان حمل نفسه معه، وكلما أغلق باباً بقي القلب مفتوحاً على الحقيقة. التوبة وحدها ليست هرباً من الحساب، بل عودة إلى صاحب الحساب؛ وهي السلطان المعنوي الذي ينقلك من موضع المذنب المستكبر إلى موضع العبد المنكسر الذي يرجو العفو.

ثم يعاد السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. إن إغلاق طريق الهرب نعمة لأنه يفتح طريق العودة، والعلم بإحاطة الله نعمة لأنه يمنعك من إهدار عمرك في محاولة الإفلات من نفسك. لا تبحث عن كون لا يراك الله فيه، بل ابحث عن حال يرضى الله عنك فيها؛ ولا تطلب منفذاً من ملكه، بل اطلب ملجأ في رحمته. فالذي لا يمكن أن تهرب منه هو نفسه الذي يمكنك أن تفر إليه، ولهذا كان أصدق اتجاه للإنسان: الفرار من الله إلى الله، من عدله الذي تخشاه إلى رحمته التي ترجوها، ومن ذنبك أمامه إلى توبتك بين يديه.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

ثم تتحول الجهات التي توهم الهارب أنها منافذ إلى حصارٍ من النار: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاْظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾. الشواظ لهب خالص نافذ، والنحاس دخان أو لهب مصبوب شديد؛ صورة تحيط بالإنس والجن وتمنع محاولة الإفلات. وما أقسى أن تتحول النار التي خلق منها الجان، والتي سخر الإنسان شيئاً من آثارها في دنياء، إلى قوة لا يملك أحدهما دفعها. كل قوة يتباهى بها المخلوق تظل محدودة ما لم يأذن الله لها؛ وقد ينقلب ما ظنه أداة سيطرة إلى شاهد على عجزه.

﴿فَلَا تَتَّصِرَانِ﴾؛ لا ينتصر أحد كما بنفسه، ولا ينصر أحد كما الآخر، ولا تملكان قوةً ترد الحكم. في الدنيا يتكئ الإنسان على جماعته، وماله، وسلطانه، وصورته في أعين الناس، حتى يظن أن شبكة الأسباب التي أحاط نفسه بها قادرةٌ على حمايته من كل شيء؛ لكن لحظة الحساب تفكك هذه الشبكة خيطاً خيطاً. لا يبقى للبر إلا حقيقة علاقته بالله، وصحيفة عمله، والرحمة التي يرجوها. كل نصرٍ لم يؤسس على الحق سينكشف عجزاً، وكل حصنٍ بُني من الظلم سيكون أول ما يتهاوى على صاحبه.

والمشهد لا يراد به أن يدفع القلب إلى القنوط، بل أن يقتل فيه الاستهانة. فالذي حذرَك من النار هو الرحمن الذي افتتح السورة باسمه، والذي وصف نفسه بالإكرام، والذي ما زال يمنحك في هذه اللحظة وقتاً لتصلح ما أفسدت. النار ليست الكلمة الأولى في السورة، ولم تأتِ قبل التعليم والخلق والبيان والميزان والنعم؛ لقد سبقها دلائل الرحمة كلها، حتى إذا أصر الإنسان على تحويل النعمة إلى جحود، والبيان إلى تضليل، والميزان إلى طغيان، جاء الوعيد دفاعاً عن معنى العدل.

ولهذا لا تغيب اللازمة حتى في هذا الموضع: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ﴾. فمن آلاء الله أن يبين العاقبة قبل حلولها، وأن يجعل للخوف وظيفةً منقذةً لا وظيفةً محطمة. الخوف الذي يردك عن حافة الهلاك رحمة، كما أن الألم الذي ينبه الجسد إلى الخطر رحمة؛ ولو فقد الإحساس بالألم لأكل المرض الجسد في صمت. كذلك الوعيد إحساس الروح بالخطر، يناديه قبل أن يستحكم فيها الداء: عودي، فما زال باب الرحمن مفتوحاً، وما زالت الحياة تملك، وما زال بإمكان الصلصال الهش أن يسجد فيرتفع، وأن يبكي فيُغفر له، وأن يعترف فلا يكون من المكذبين.

حين تتصدّع السماء وتسقط أقنعة القوة

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكَذِّبَانِ﴾

منذ مطلع السورة كانت السماء سقفاً مرفوعاً، والشمس والقمر يجريان فيها بحسبان، والميزان يحفظ بناء الوجود من الاختلال؛ ثم تأتي هذه اللحظة التي يأذن فيها الله للنظام المألوف أن ينتهي: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾. إن السماء التي طالما مثّلت للإنسان الاتساع والثبات والحماية لن تبقى يوم القيامة على صورتها التي عرفها، فهي نفسها مخلوقة، وما كان ثباتها إلا أثراً من آثار الأمر الإلهي، فإذا جاء أمر آخر انفرط البناء الذي توهم الإنسان أنه لا يتغير. وما أعمق هذا المشهد في هدم أوهام النفس؛ فإذا كان السقف الكوني الذي امتد فوق الأجيال كلها سينشق، فأَي سقْف بشري يحق له أن يزعم الخلود؟ وأي نظام أرضي يستطيع أن يقول: لن أتبدل، وقد كُتِبَ التبدل على السماء نفسها؟

الانشقاق ليس مجرد تغيير في المشهد، بل انكشافٌ لحقيقة أخفاها الاعتياد: نحن نعيش داخل عالم مؤقت. وقد بلغ إحكام هذا العالم درجة جعلت الإنسان ينسى أنه مرحلة لا نهاية، فتوهم أن القوانين التي تحيط به أبدية، وأن الموت خللٌ صغير في نظام الحياة، بينما تخبره القيامة أن الدنيا كلها هي الفصل المؤقت، وأن الموت ليس ثقباً في جدارها بل الباب المؤدي إلى الحقيقة الأوسع. يومئذٍ لا ينشق غلاف السماء وحده، بل تنشق معه تصورات الإنسان الضيقة، ويسقط الحد الذي كان يفصل الحس عن الغيب، فيرى ما كان يؤمن أن يؤمن به، لكن الرؤية يومئذٍ لا تنشئ إيمان الاختيار؛ لأنها تأتي بعد انتهاء زمن الامتحان.

ثم تقول الآية: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾. يا لروعة الصورة وهولها في آنٍ واحد؛ السماء تتحول إلى هيئة حمراء كالورد، أو تصير في تلوونها وذوبانها كالدهان، وهو الزيت المذاب أو الجلد الأحمر أو الألوان التي يداخل بعضها بعضاً. إن القرآن لا يقدم مشهد القيامة بلغة جافة تجرد الحدث من أثره، بل يرسمه بصورة تجمع الجمال الخفيف والرهبة الآسرة؛ وردة كونية، لكنها ليست وردة بستانٍ تمتد إليها اليد، بل سماءٌ ذائبة متصدعة تشهد نهاية النظام القديم.

وهذه المفارقة بين لفظة ﴿وَرْدَةً﴾ ورعب الانشقاق تفتح أمام الذوق باباً دقيقاً: ليس الجمال دائماً طمأنينة، فقد يكون مهيباً إلى حد الارتجاف، وقد تقف العين أمام مشهدٍ فائق الحسن بينما يدرك القلب أن وراء حسنه انقلاب العالم. إن جمال القيامة ليس جمال الراحة، بل

جمال الجلال؛ جمال القوة التي تعيد تشكيل السماء كما تفتح الورد، وتطوي النظام كما تدخل الأصباغ. فالذي خلق السماء زرقاء صافية في الدنيا قادرٌ أن يجعلها وردة في الآخرة، والألوان كلها جنودٌ في مشاهد قدرته.

وفي التشبيه ﴿كَالِدِهَانٍ﴾ حركةٌ بعد اللون؛ فلا تبدو السماء صفحة حمراء جامدة، بل مادة مائعة تتغير وتضطرب. كأن ثباتها الظاهر يذوب، ويصير ما حسبه الإنسان سقفاً محكاً سائلاً بأمر الله. وحين يتخيل القلب ذلك يعلم أن يوم القيامة ليس زيادةً في أحداث الدنيا، بل نقضٌ لبنيتها التي عرفناها؛ فلا تنفع مقاييسنا المعتادة في احتواء مشهدٍ تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات.

وما دام الكون المحيط بالإنسان سينقلب بهذه الصورة، فإن التعلق به كأنه الحقيقة النهائية ضربٌ من قصر النظر. نحن ننفق أحياناً أعمارنا في تزويق زاوية صغيرة من عالم سينشق سقفه، ونخاصم على أشياء ستذوب، ونظلم من أجل أملاكٍ ستبطلها القيامة، ثم لا نعد للقلب الذي سيقف وسط هذا التحول ما يثبتته. ليست الدعوة إلى ترك عمران الدنيا، بل إلى ألا نسمح لعمرانها أن يصاحبه خراب الآخرة؛ نبني ونحن نعلم أن البناء أمانة، ونملك ونحن نعلم أن الملك عابر، ونسعى ونحن نعرف أن ثمرة السعي الكبرى ليست ما يتكدس في أيدينا، بل ما يسبقنا إلى الله.

ثم يأتي السؤال وسط تشقق السماء: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. إن الإخبار بالغيب نعمة، وكشف النهاية قبل وقوعها رحمة، وإقامة الدليل على قدرة الإعادة بذكر انهيار العالم الذي نعرفه منةٌ للعقل الذي قد يحبس المألوف. ثم إن القيامة نفسها نعمةٌ للعدل؛ لأن العالم الذي وقع فيه الظلم لا يمكن أن يكون هو الصفحة الأخيرة. لا بد من سماءٍ تنشق لكي تنشق معها الحجب التي أخفت الحقائق، ولا بد من نظامٍ ينتهي حتى يقوم نظامٌ لا يترك فيه حقٌ بلا وفاء، ولا ظلمٌ بلا حساب.

الوجه التي تغني عن السؤال

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَيِّمَاهُمَا فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

بعد أن تنشق السماء، ينتقل المشهد من انقلاب الكون إلى انكشاف الإنسان: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾. وليس المعنى نفي السؤال في جميع مواقف القيامة؛ فقد دلّ القرآن على وجود السؤال والحساب، وإنما لهذا اليوم مشاهد ومواطن، وفي هذا الموطن لا يكون السؤال سؤال استعلام يكشف مجهولاً؛ فالله محيطٌ بالذنوب، والصحائف منشورة، والآثار شاهدة، والوجه نفسه قد صارت نصوصاً ظاهرة. في الدنيا يستطيع المجرم أن يعيد صياغة قصته، وأن يقتطع من الحقيقة ما يبرئه، وأن يلبس الخيانة ثوب الحكمة، والجبن اسم الواقعية، والطمع صورة المصلحة العامة؛ أما هناك فتنهار سلطة البيان المزيف، ولا يعود اللسان مالِكاً لرواية صاحبه.

ما أشد المفارقة بين ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ في أول السورة وهذا الموضع؛ فالبيان كان نعمةً ليكشف الإنسان بها الحق، فإذا استعملها لإخفائه جاء يومٌ تنفصل فيه الحقيقة عن تلاعب عبارته. إن الله منح الإنسان اللغة كي يكون شاهداً، لكنه قد يحولها إلى ستار، ويصوغ من الكلمات متاهةً يضل بها الآخرون وربما يضل بها نفسه. يكرر العذر حتى يصدقه، ويجهل الدافع حتى ينسى قبحه الأول، ويسمي هواه اجتهاداً، وعدوانه ضرورة؛ ثم تأتي الآخرة فتردّ الأسماء إلى مسمياتها، وتسقط البلاغة التي لم تكن في خدمة الحق.

وهذه الآية تهز العقل الذي يتعامل مع الذنب كأنه لا يوجد إلا إذا اعترف به صاحبه أو أثبتته عليه الناس. كثيرٌ من الخطايا تعيش في الدنيا خلف نقص الأدلة، أو قوة النفوذ، أو خوف الشهود؛ وقد يخرج الظالم من محكمة الأرض مرفوع الرأس لأن القانون لم يستطع الوصول إلى جريمته، لكنه لا يخرج من علم الله. العدل الإلهي لا يحتاج إلى تحقيقٍ يستكمل به علماً ناقصاً، ولا إلى شهادة قد تخونها الذاكرة، ولا إلى وثيقة يمكن تمزيقها؛ ما وقع في الظلام محفوظٌ كما وقع في الضوء، وما أخفته الصدور معلومٌ قبل أن تتطرق به الألسنة.

وفي قوله: ﴿إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ تسويةٌ جديدة بين العالمين؛ لا يمنح اختلاف الخلقة أحداً منفذاً من المسؤولية. الإنسان الذي خلق من صلصال، والجنان الذي خلق من مارجٍ من نار، يفتان

معاً أمام الحقيقة، كما خطباً معاً بالنعم. فمن عدل الله أن من اشترك في التكليف يشترك في الحساب، ومن رحمته أن من أُعطي قدرة الاختيار لم يُترك ضحيةً للعبث الأخلاقي؛ فالحساب ليس إهانةً للإرادة، بل إعلانٌ عن جدّيتها.

ثم يتكرر السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. إن من الآلاء أن تكون هناك حقيقة لا تستطيع الدعاية تزويرها، ومحكمة لا يشتريها الغني، ولا يرهبها صاحب القوة، ولا يضلّ لها فصيح اللسان. وكم يتعطش المظلوم في الدنيا إلى لحظةٍ تظهر فيها الأشياء كما هي، بلا أقنعة ولا ترتيبات ولا تلاعبٍ بالروايات؛ والآخرة هي تلك اللحظة الكبرى التي لا ينتصر فيها الصوت الأعلى، بل الحق الأثبت.

ثم تقول السورة: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِيمَاهُمْ﴾. لم تعد الجريمة سرّاً داخليةً أو سجلاً مخبوءاً، بل تحولت إلى سمةٍ تظهر في الوجه والهيئة. لقد كان الجسد في الدنيا قادراً على تمثيل ما ليس في القلب؛ قد يتسم الكاذب، ويتزين الخائن، ويتقمص القاضي ملاحم الشفقة، ويقف المجرم أمام الناس في صورة المتقذ؛ أما يوم القيامة فيصير الظاهر ترجمةً صادقةً للباطن، وتنطبع الحقيقة على ملاحم صاحبها. كأن الأعمال التي ظن الإنسان أنها غادرت لحظة وقوعها كانت في الواقع تحت وجهه الأخرى من حيث لا يشعر.

ولفظ ﴿سِيمَاهُمْ﴾ يفتح تأملاً مرعباً في أثر الأفعال؛ فالعمل لا يمرّ بنا من الخارج ثم يذهب، بل يدخل في تكويننا. كل اختيارٍ يترك أثراً في الروح، وإن لم يظهر فوراً في الوجه؛ فالتكرار يصنع الهيئة الباطنية للإنسان، والذنب الذي يصر عليه لا يبقى فعلاً منفصلاً، بل يتحول تدريجياً إلى وصف، ثم إلى هوية. قد يبدأ المرء بكذبة يخافها، ثم يكررها حتى يصبح الكذب طريقته في حماية ذاته، ثم يأتي يومٌ لا يعود فيه قادراً على رؤية الحقيقة إلا من وراء أقنعه. والتوبة رحمة لأنها لا تحو سجلاً فحسب، بل تنقذ الوجه الداخلي قبل أن تكتمل فيه سمة الجريمة.

﴿فِيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾؛ صورةٌ تجمع أعلى الجسد وأسفله، مقدمة الرأس التي كانت موضع اعتداد الإنسان وتوجهه، والقدمين اللتين سعتا به في الأرض. يؤخذ من الناصية التي دبّرت وتكبرت، ومن الأقدام التي مشت ونفذت؛ فكأن الفكر والحركة، والعزم والسعي، اجتمعت كلها في قبضة الجزء. من كان يرفع رأسه بالباطل يؤخذ من موضع كبريائه، ومن كانت قدماه تسوقانه إلى الظلم تُضَمَّان إلى مصيره. لا يبقى له تماسك الصورة التي حافظ عليها أمام الناس، بل تنكشف المهانة التي كان يبنينا في داخله كلها أهان حقاً أو استعلى على عبد.

وللناصية في القرآن صلةً بالكذب والخطيئة، فهي ليست موضعاً جسدياً فحسب، بل رمزاً للقيادة والوجهة، كأن السؤال الأخلاقي الذي يغيب عن الإنسان في الدنيا يعود يومئذٍ إلى أين قادت عقلك؟ وأي طريقٍ اختارته قدماك؟ لم يكن العقل نعمةً ليبرع في تبرير الشهوة، ولا كانت القدرة على الحركة لكي يسرع صاحبها إلى ما يفسده. النعمة إذا لم تُرد إلى غايتها انقلبت شاهداً؛ فيشهد البيان على الكلمة، وتشهد القدم على المسير، وتشهد الناصية على القرار.

ثم يأتي السؤال من جديد: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. كأن السورة لا تدع الرهبة تنفصل عن إدراك الرحمة؛ فهذا الوصف كله تحذير يصلنا الآن ونحن قادرون على تغيير السمة قبل أن تثبت، وعلى ردّ القدم قبل أن تبلغ نهايتها، وعلى خفض الناصية في سجدةٍ تحو كبرها. ما دام المشهد خبراً نقرؤه، ولم يصبح واقعاً نراه، فلا تزال النعمة قائمة، ولا يزال السؤال باباً إلى التوبة لا حكماً نهائياً بالإدانة.

النار التي كَذَّبَ بها أصحابها

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آِنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

لا تقول الآية: هذه جهنم فحسب، بل تضيف: ﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، فتصل بين المشهد وموقفهم القديم منه. ما كان خبراً يمرّ على آذانهم صار حضوراً يحيط بهم، وما قابله بالاستهزاء صار حقيقةً يشار إليها: ﴿هَذِهِ﴾. اسم الإشارة للقريب يختصر المسافة التي صنعها التكذيب في وعيهم؛ فقد ظنوا جهنم بعيدةً لأنها غابت عن أبصارهم، ولم يدركوا أن الغيب لا يصير وهماً لأنه غير مرئي، وأن كل آتٍ تتناقص المسافة إليه مع كل نفس.

ولم تقل الآية: التي يجهل بها المجرمون، بل ﴿يُكَذِّبُ بِهَا﴾؛ لأن المشكلة لم تكن دائماً نقص الدليل، بل قد تكون رفض النتيجة التي يفرضها الدليل. الإيمان بالآخرة يسلب الهوى حريته المطلقة، ويخبر الإنسان أن للذة ثمناً، ولل قوة حداً، وللخلة رقيباً، ولهذا قد يهرب المرء من الحقيقة لأنها غامضة، بل لأنها واضحة أكثر مما يريد. بعض التكذيب موقفٌ أخلاقي قبل أن يكون شبهةً فكرية؛ إذ يريد صاحبه كوناً بلا حساب كي يعيش بلا ميزان.

والتعبير بالمضارع ﴿يُكَذِّبُ﴾ يستحضر فعلهم كأنه ما يزال جارياً، ويصور إصرارهم الذي لازمهم حتى صار عنواناً لهم. لقد جاءتهم آيات الرحمن، وذُكروا بالخلق والبيان والميزان، ورأوا في أنفسهم وفي الآفاق ما يكفي لإيقاظ القلب، لكنهم حولوا التذكير إلى ضجيج مألوف، حتى مات فيهم شعور المفاجأة. وهنا يظهر خطر الاعتياد على الموعظة؛ فالإنسان قد يسمع حقيقة الموت مراراً حتى تتحول في أذنه إلى لفظٍ بلا حضور، ويقرأ وصف الحساب حتى يمر به كما يمر بخبرٍ عن زمنٍ لا يخصه. ليست المشكلة دائماً أن يغيب النص، بل أن يحضر بلا أثر.

ثم يرسم العذاب في حركة دائبة: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آِنٍ﴾. الطواف في أصله دورانٌ متكرر، لكنه هنا ليس طواف الشوق حول موضعٍ مقدس، ولا حركة المسافر الذي يبحث عن نهاية، بل انتقالٌ متواصل بين النار وماءٍ بلغ غاية الحرارة. يطلبون من الحميم ما يخفف النار، فإذا هو عذابٌ آخر؛ فلا يصلون إلى جهةٍ تمنحهم الراحة، ولا يفتح الانتقال لهم مخرجاً. كانوا في الدنيا يهربون من ألم الحقيقة إلى شهوةٍ تسكنه مؤقتاً، ومن وخز الضمير إلى

عذر جديد، ومن فراغ القلب إلى متاع آخر، حتى صار الهرب نمط حياتهم، ثم تجسد في الآخرة طوافاً بين عذابين.

﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾؛ ماءً انتهت حرارته إلى غايته. وهنا تتقلب النعمة التي كانت في الدنيا أصل الحياة إلى صورة من العذاب. الماء الذي أنزله الله عذاباً، وأخرج به الحب والريحان، وجعله يجري في البحار ويحمل السفن، يُقابل هنا بحميم لا يروي بل يحرق. وليس هذا التحول عبثاً، بل يحمل معنى أخلاقياً عميقاً: من لم يعرف النعمة في صورتها الرحيمة، ولم يستعملها في طاعة المنعم، عرف يوماً قدرة الله على أن يسلب الأشياء وظيفتها المألوفة. ليست النار بذاتها مستقلة بالإحراق، ولا الماء بذاته مستقلاً بالإرواء؛ إنما خصائص الأشياء جندٌ لله، يجريها كيف يشاء.

وفي هذا المشهد نرى نتيجة الإخلال بالميزان؛ فالجرمون الذين طغوا في ميزان الدنيا دخلوا عالماً لا يجدون فيه التوازن الذي أفسدوه. كانت أمامهم مياه الرحمة ونار الشهوة، فاختاروا أن يطفئوا نور الوحي ويحفظوا لهب الرغبة؛ فغاءت الآخرة بماء من جنس العذاب ونار لا يستطيعون إطفاءها. والجزاء في القرآن ليس منفصلاً عن العمل، بل كثيراً ما يكون العمل قد خرج من خفائه وارتدى صورة حسية يراها صاحبه. الحميم يبدأ معنى في القلب حين تُعبد الشهوة ويُطرد النور، ثم يظهر يوم القيامة ناراً تلتهم الأفعنة.

لكن ينبغي أن يظل القلب واعياً بأن وصف النار ليس مادةً للتشفي في العصاة، ولا دعوة إلى أن يتمص المؤمن مقام الحكم على مصائر الأفراد؛ إنه خطابٌ للخوف من مصير النفس أولاً، وللرحمة بالخلق ثانياً. من صدق بالنار حقاً لا ينبغي أن يجعله قاسياً، بل أكثر شفقةً، لأنه يرى إلى أي نهاية قد يقود الغرور. والمصلح الذي يحذر الناس من هاربة لا يفرح بسقوطهم فيها، بل يمد إليهم الجبل؛ وكل خطابٍ عن جهنم يزيد المتكلم كبراً على الخلق قد فاته شيء من الغاية التي جاء الوعيد لتحقيقها.

ثم يعود السؤال بعد النار والحميم: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ﴾. وهذا من أشد مواضع اللازمة إيقاظاً؛ فالنعمة هنا أن الحق لم يُخفِ العقوبة، وأن الرحمن لم يترك الإنسان يمشي إلى النار وهو يظنها حديقة. الإنذار من النار رحمة سابقة عليها، كما أن الالفة التي تصرخ في المسافر أن الطريق ينتهي إلى هاربة ليست تهديداً له، بل إنقاذ. وقد يكره الغافل صوت التحذير لأنه يقطع عليه لذة السير، لكن كراهته لا تجعل الصمت أرحم به.

والسؤال في هذا الموضوع يقيم على الإنسان حجةً وجدانية: إن كنت تكذب بالنار، فألى أي أساسٍ يستند تكذيبك؟ ألى أن الظالمين والمظلومين ينبغي أن يتساووا؟ أم إلى أن الاختيار الإنساني لا يستحق نتيجة؟ أم إلى أن الرحمن لا يغضب لانتهاك حرمت عبادته؟ إن الرحمة التي لا تعرف العدل ليست رحمةً كاملة، والعفو الذي يفرض على المظلوم بلا ردٍّ لحقه قد يكون ظلماً جديداً. الله أرحم الراحمين، وهو كذلك أحكم الحاكمين؛ ورحمته لا تعني أن الشر والخير شيءٌ واحد، بل تعني أنه أقام الحجة، وفتح باب التوبة، وضاعف الحسنات، وغفر لمن رجع، ثم لم يترك حقاً يضيع.

وينتهي مشهد النار هنا، لكن السورة لا تترك القلب عند اللهب؛ ففي الآية التالية سينفتح بابٌ آخر، ويتحول الخوف من مقام الله إلى جنتين: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. وهكذا يظهر الميزان من جديد: مَنْ حمل في الدنيا خوف اللقاء، آمنه الله في الآخرة؛ وَمَنْ ارتعد قلبه قبل المعصية، لم ترتعد جوارحه في ذلك الموقف؛ وَمَنْ رأى النار بعين الإيمان وهي غائبة، أبعد عنها حين تصير حاضرة. هناك يتبين أن الخوف من الله ليس سجنًا للروح، بل الطريق الذي ينقلها من ضيق الشهوة إلى سعة الجنان.

الخوف الذي أورث صاحبه جنتين

﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذَّبَانِ﴾

بعد مشهد جهنم والحميم، تفتتح فجأة نافذتان على الخصرة: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾. لم تقل السورة: ولمن لم يذنب؛ لأن البشر ليسوا ملائكة، ولم تقل: ولمن بلغ الكمال؛ لأن الكمال المطلق ليس للمخلوق، وإنما جعلت المفتاح خوف المقام. والخوف هنا ليس رعباً أعمى من قوة مجهولة، بل يقظة القلب أمام عظمة الله، وشعوره بأنه سيقف بين يديه، وأن الخلوة التي غاب عنها الناس لم تغب عن علمه، وأن الاختيار الصغير الذي استهان به سيلاقيه يوماً في صحيفة لا تنسى.

﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾؛ أي خاف قيامه بين يدي ربه، أو خاف مقام الرب عليه بعلمه ورقابته وسلطانه، والمعنيان يلتقيان في قلب لم يرغب عنه الله ساعة الفعل. إن أكثر الذنوب تحتاج إلى غياب مؤقت للحقيقة؛ لا غيابها عن العقل، بل غيابها عن الشعور. يعرف الإنسان أن الله يراه، لكنه يتصرف في لحظة الشهوة كأن المعرفة بعيدة لا سلطان لها على يده، ويعرف الحساب، لكنه يدفعه إلى آخر الذاكرة حتى ينتهي من مراده. أما الخائف مقام ربه، فليس من لم تنازعه الرغبة، بل من حضرت عظمة الله في قلبه حين حضرت الرغبة، فوجد في نفسه قوة تقول: إن لذة تنتهي لا تستحق أن أقف بسببها منكسراً في مقام لا ينتهي.

وفي إضافة المقام إلى ﴿رَبِّهِ﴾ رحمة تسري داخل الخوف؛ فالذي تخاف مقامه هو ربك، لا قوة غريبة عنك، وهو الذي ربّاك بالنعم، وعلمك القرآن، وخلقك، وعلمك البيان. ولهذا نفوف المؤمن ليس قنوطاً من الله، بل هيبة ممزوجة بمعرفة رحمته؛ يخشى أن يفقد قرباً ذاق حلاوته، وأن يقابل الإحسان بالجحود، وأن يستعمل هبة الرب في معصيته. وكلها عظم الحب في القلب صار الحياء من الإساءة أشد؛ فالخوف الأرقى ليس خوف الجسد من النار وحدها، بل خوف الروح من أن تهون في عين نفسها حين تحون العهد مع الرحمن.

الخوف الصادق ليس شللاً يمنع الإنسان من الحياة، بل بصيرة تمنعه من إفسادها؛ إنه الحارس الداخلي الذي يعمل حين تغيب العيون، والميزان الذي يستقيم حين تميل المصلحة، والضوء الذي يفضح العذر قبل أن يتحول إلى خداع للنفس. قد يستطيع القانون أن يمنع يدك حين ترى، لكن خوف الله وحده يمنعها حين لا يراك أحد؛ وقد تحفظ صورتك أمام الناس

لأنهم يملكون مدحك وذمك، لكن القلب الذي يخاف مقام ربه يحفظ حقيقته في الموضع الذي لا يصل إليه إلا الله.

وما أعجب الجزاء: ﴿جَتَّانِ﴾، بصيغة التثنية التي تفيض بالمضاعفة والسعة. خاف مقاماً واحداً فأعطى جنتين، وترك لذة ضيقة ففتحت له فسحتان من النعيم، وصبر لحظة عن شهوة عاجلة فُمنح ما لا ينقضي. هكذا يكشف القرآن أن الترك لله ليس خسارة، وإن بدا في لحظته حرماناً، فما تمنعه التقوى عن الجسد تعيده الرحمة إلى الروح أضعافاً، وما تغلقه في وجه الرغبة العابرة يفتحه الله في الأبد.

وقد تكون الجنتان نوعين من الإكرام، أو بستانين كاملين، أو جزاءً للإنس والجن، ويبقى في التثنية جمالٌ يحاصر القلب بالوفرة: أينما اتجه وجد جنة، وكأن الله يبذل الخوف الذي أحاط به في الدنيا أماناً يحيط به في الآخرة. كان يخشى أن يقع في المعصية من بين يديه ومن خلفه، فأصبح النعيم يمتد إليه من جهتين، وكان يراقب حدود الله في السر والعلن، فصار له من الجزاء ما يملأ الظاهر والباطن.

ثم يأتي السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. بأي نعمة يقع التكذيب هنا؟ أبنعمة القلب الذي عرف الخوف؟ أم بنعمة المقام الذي ردع عن الخطيئة؟ أم بنعمة الجنتين اللتين أعدهما الرحمن؟ حتى الخوف نفسه منّة؛ لأن القلب الذي لا يخاف الله قد يندفع نحو هلاكه وهو يظن نفسه حراً. ليست كل راحة نعمة، فقد تكون راحة الضمير بعد موته، وليست كل رجفة عذاباً، فقد تكون رجفة اليقظة التي تمنع القدم من السقوط.

أفنان النعيم وينبوعه

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

لا تطيل السورة في تعريف الجنتين قبل أن تفتح أغصانها أمام العين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾. كلمتان فقط، لكنهما تملآن الخيال بالشجر المتفرع، والظلال المتداخلة، والألوان المتنوعة، وأنواع النعيم التي تشعب فلا تنتهي إلى صورة واحدة. الأفنان أغصان أو أصناف من الثمر والنعيم، والمعنيان يجتمعان في معنى التعدد المنبثق من أصل واحد، كأن كل غصن يقود إلى بهجة، وكل طريق في الجنة يفتح على لون من الإكرام.

وفي لفظ ﴿أَفْنَانٍ﴾ خفة ناعمة تناسب حركة الأغصان، وحروف تفتتح كما تفتتح الفرع من الفرع، فلا يكاد اللسان ينطقها حتى يمر في النفس ظل أخضر. وهذه إحدى عجائب البيان القرآني: الكلمة لا تحمل المعنى المعجمي فحسب، بل تحمل من جرسها هيئة المشهد، فيتآلف الصوت والصورة والدلالة. لم يقل: ذوات أشجار كثيرة، مع أن العبارة تؤدي أصل المعنى، بل اختار الأفنان لتنتقل العين من كثرة العدد إلى جمال التشعب، ومن وجود الشجر إلى حيوية امتداده.

والغصن في الوعي الإنساني صورة للحياة؛ يخرج من الجذع ثم يتشعب، ويحمل الورق والثمر والظل. وفي الجنة لا يعود التشعب مصدر تشتت، كما هو في الدنيا حين تنفرع الطرق فيحار الإنسان أيها يسلك، بل يصبح وفرّة بلا ضياع، وتنوعاً بلا تعب، واتساعاً بلا خوف من أن يفوته شيء. في الدنيا يختار المرء متعة فيفقد أخرى، ويبلغ مكاناً فيغيب عن مكان، ويقطف ثمرة فيجد فيها نقصاً أو نهاية؛ أما أفنان الجنة فلا يحمل تعددها قلق الاختيار، لأن الأبد يمنح ساكنها متسعاً لكل نعيم.

ولعل في وصف الجنتين بالأفنان ردّاً على جفاف الحياة الذي يحتمله المتقون أحياناً في طريقهم. قد تمرّ على المؤمن مواسم تبدو فيها الدنيا قليلة الظلال؛ يترك فيها ما يحب، ويصبر على قسوة الطريق، ولا يرى ثمرة استقامته عاجلة أمامه. فتقول له السورة: إن كل موضع يبس فيه حلقك من الصبر سيقابله غصن، وكل ظلّ حرمت نفسك منه لأنه يقود إلى المعصية

سينتظرك في دارٍ لا تزول ظلالها. ليس الوعد تخديراً للألم، بل وضعٌ له في سياقٍ أوسع من اللحظة، حتى لا يحسب الصابر أن جفاف الطريق هو الحقيقة كلها.

ثم تقطع اللازمة الوصف لتردّ الجمال إلى صاحبه: ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾. فالإنسان قد يستغرق في صورة الجنة وينسى رب الجنة، كما استغرق في نعيم الدنيا ونسي المنعم؛ لذلك يتكرر السؤال بين تفصيلٍ وتفصيلٍ، حتى يبقى القلب متعلقاً بواهب الأفتان لا بالأفتان وحدها. الجنة ليست استقلالاً عن الله في نعيمٍ مكتمل، بل أعظم ما فيها أن النعمة لا تحجب عن المنعم، وأن القلب لا يضل في المتاع عن صاحب العطاء.

ثم يأتي الماء بعد الشجر: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾. لم يقل: فيهما ماء، بل عينان تجريان؛ فالماء حي متحرك، يخرج من منبعه ويعبر المكان فيسمع له خرير، وتنعكس عليه الألوان، وتستريح إليه الروح قبل أن تشرب منه. السكون الكامل قد يكون جوداً، أما الجريان فهو تجدد؛ ولهذا تبدو الجنة عالماً لا يشيخ فيه الجمال ولا يتحول النعيم إلى رتابة. كل شيء فيها حاضرٌ كأنه يأتي للرة الأولى، والماء لا يقف حتى تأسن صورته، بل يجري كما يجري السرور في أرواح أهلها.

وفي العينين ثنيةٌ أخرى توافق الجنتين، فكأن لكل جنةٍ نبعها الذي لا تستمد حياتها من خارجها. وفي الدنيا تتعلق الحداثق بمطرٍ قد ينقطع، ونهرٍ قد يجف، وبأيدٍ تعتني بها وقد تضعف؛ أما هناك فإن أسباب النعيم جزءٌ من كآله، لا يهددها نقص ولا يقطعها موسم. إن العين الجارية ليست ماءً فحسب، بل صورةٌ للأمان من الانقطاع، والنعيم لا يكتمل في قلب الإنسان إذا كان ينتظر لحظة زواله. كل لذةٍ دنيويةٍ تحمل في أعماقها قلق النهاية؛ نشرب ونحن نعرف أن العطش سيعود، ونلتقي ونحن نعرف أن الفراق ممكن، ونفرح وفي طرف الفرح ظلٌ للخوف. أما ماء الجنة فيجري بلا ظلٍ للفقد.

ونتصل هذه العينان بمشهد البحرين السابق، لكن الفرق بين الموضعين دقيقٌ وجميل؛ هناك بجران عظيمان بينهما برزخ يحفظ حدودهما، وهنا عينان تجريان داخل دار الأمان. في الدنيا الماء جزءٌ من ميزان الامتحان؛ قد يجي وقد يغرق، يحمل السفن ويخفي في أعماقه المخاطر، أما في الجنة فقد تطهر النعمة من وجه الابتلاء، وبقي وجه الإكرام وحده. هناك لا يخشى ساكن الجنة موجةً ولا غرقاً ولا عطشاً ولا فساداً؛ الماء رحمةٌ صافية لا تختلط بالخرق.

ثم يعود السؤال: ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾، فتقف الروح بين الأفتان والماء مطالبةً بالاعتراف. وكان الجواب الذي لم يستطع اللسان أن يحيط به في الدنيا سيصير في الجنة حالاً دائماً من الحمد؛ لأن النعمة هناك تُرى بلا حجاب، ولا تنسبها النفس إلى كسبها وحده. يدرك

أهل الجنة أن خوفهم وعملهم لم يكونا ثمناً يساوي هذا العطاء، بل سبباً تفضل الله بقبوله، وأن الفضل منذ البداية إلى النهاية للرحمن.

ثمر الداني والنعيم الذي لا ينفد

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَإِنِّي آتٍ بِكُمْ بِكُمْ تَكْذِبَانِ﴾

بعد الأغصان والعيون، تظهر الثمار: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾. إنها ليست فاكهة واحدة تسد الحاجة، بل من كل فاكهة زوجان، تنوع داخل التنوع، ومضاعفة داخل الوفرة. وفي كلمة ﴿كُلِّ﴾ انفتاح لا يستطيع الخيال أن يبلغ نهايته؛ لأن الإنسان لا يعرف من الفاكهة إلا ما رآه في الأرض، أما خزائن الرحمن فلا تنحصر في قاموس التجربة البشرية. قد تحمل الأسماء شيئاً بما نعرف، لكن الحقيقة هناك أصفى وأكمل، إذ لا يمكن للنسخة الفانية أن تستوعب كمال الأصل الموعود.

وفي عودة الفاكهة من وصف الأرض: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ إلى وصف الجنة: ﴿مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، نرى كيف يصعد القرآن بالنعمة من النموذج إلى تمامه. فاكهة الدنيا علامة تُعرف القلب بإمكان اللذة، لكنها تأتي محاطةً بالنقص؛ لها موسم، وقد تفسد، وقد تُمنع عن فقير، وقد يتذوقها مريضٌ فلا يجد طعمها. أما فاكهة الآخرة فنعيمٌ تحرر من شروط الفناء، لا يهدده عطب ولا احتكار ولا مرضٌ يفسد الذائقة. الدنيا تُريك الحرف الأول من كلمة النعيم، واللجنة تقرئك الكلمة كاملة.

ولم يقل: فيها ثمر يؤكل، بل قال: ﴿فَاكِهَةٌ﴾؛ ففي اللفظ معنى التلذذ والتفكك، لا مجرد دفع الجوع. وكأن الإنسان الذي قاوم شهوته في الدنيا لا يُستقبل في الآخرة بخطاب الحرمان، بل بخطاب التذوق الكامل. الإسلام لا يعادي اللذة في ذاتها، وإنما يطهر طريقها وموضعها ووقتها؛ يمنع لذة لأنها مسروقة، أو لأنها تهدم ميزان الروح، أو لأنها تقود إلى ألم أعظم، ثم يعد بلذة لا ظلم فيها ولا ندم. الزهد الحق ليس كراهية الجمال، بل رفض أن يشتري جمال صغير بثمن أبدي.

والزوجان يحلان معنى الاختلاف المتآلف؛ لوان، أو صنفان، أو نوعان من كل ثمرة، فلا تصبح الكثرة تكراراً مملأً، بل تنوعاً متجدداً. إن النفس البشرية تملّ ما يتكرر، مهما كان جميلاً، لأن لذتها في الدنيا محدودةٌ بجهاز إدراكٍ يكلّ ويعتاد؛ أما الجنة فتُعاد فيها طبيعة التلقي نفسها، فلا يعتري أهلها ملل، ولا ينطفئ الإحساس بالدهشة. ليست الجنة مجرد أشياء لا تنتهي، بل قلب لا يفقد قدرته على الابتهاج بها.

وهنا يجيء السؤال بعد ثمرة لم تقطف بعد في الدنيا: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. فالآلاء ليست ما وصل إلى يدك فحسب، بل ما أعده الله لك وأخبرك به ودعاك إليه. الوعد الصادق نعمة قبل أن يتحقق؛ لأنه يمد القلب بطاقة الصبر، ويفتح في جدار اللحظة نافذة على الأبد. الجائع الذي يعلم أن مأدبةً تنتظره يستطيع أن يحتمل الطريق على نحو لا يستطيعه من يظن أن الجوع نهاية قصته؛ وهكذا يعيش المؤمن بنور الموعد دون أن يغيب عن عمل الحاضر.

بطائن الإستبرق وجنى الجنتين

﴿مُتَكَيِّنٍ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ﴾

ينتقل المشهد من الحديقة إلى هيئة أهلها: ﴿مُتَكَيِّنٍ﴾. كلمة واحدة تحو من الجسد ذاكرة التعب؛ فلا قيام اضطرارٍ، ولا ركض خلف رزق، ولا قلق يجعل الظهر متحفزاً، بل اتكاءً أمنٍ واسترخاءً من انتهى امتحانه. كم ظل هؤلاء في الدنيا واقفين عند حدود الله حين دعته الشهوة إلى تجاوزها، وكم حملوا أنفسهم على الطاعة حين طلبت الراحة، وكم نهضوا من فراشٍ دافئ إلى صلاة، أو من صمتٍ آمن إلى كلمة حق؛ ثم جاء اليوم الذي قيل لهم فيه بمعنى الحال: اتكئوا، فقد انتهى زمن التكليف وبدأ زمن التكرم.

والاتكاء ليس وصفاً جسدياً محضاً، بل صورةٌ نفسيةٌ للأمان. قد يستلقي الإنسان في الدنيا على أنخم فراش ولا يستطيع أن يتكئ بقلبه؛ لأن الخوف يوقظه، والندم يطارد، والمستقبل يضغط على صدره. الراحة ليست في ليونة الموضع وحدها، بل في زوال ما يهدد الروح. ولهذا لا يشبه اتكاء الجنة أي راحة أرضية؛ إنه اتكاءٌ من أيقن أن لا موت بعده، ولا خيراً مفجعاً يقطع مجلسه، ولا مرضاً ينقله من فراشه، ولا فراقاً ينتظر عند نهاية اللقاء.

﴿عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾؛ والاستبرق غليظ الديباج، وهو من نفائس ما عرفه

الناس. والعجيب أن الآية تصف البطائن، أي الجانب الباطن من الفرش، فإذا كان باطنها من هذا الحرير الفاخر، فكيف بظاهرها الذي لم يُذكر؟ هنا يستعمل القرآن المعلوم ليفتح باباً على ما لا يستطيع الخيال إدراكه؛ يعطيك علامةً من داخل تجربتك، ثم يترك لك مساحة العجز عن تصور تمام النعيم. كأن اللغة تبلغ بك إلى العتبة، ثم تقول: وراء هذه العتبة ما لم توضع له في الدنيا كلمات.

وفي ذكر البطائن معنى لطيف: نعيم الجنة فائز حتى في الأجزاء التي لا تظهر. أما الدنيا فكثير من نغامتها قائم على الظاهر؛ يلعب السطح وقد يخفي تحته فراغاً أو خشونة، وتزين الصورة بينما ينهار الباطن. قد يبدو البيت كاملاً وتختق داخله القلوب، ويظهر الإنسان سعيداً فيما تمتلئ ليلته بالوحشة. في الجنة لا فجوة بين الظاهر والباطن؛ البطانة استبرق، والسريرة سلام، والوجه نضرة، وما خفي من النعيم لا يقل جمالاً عما ظهر.

ثم يقول: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾. الجنى هو الثمر المقطوف أو المستحق للقطف، وهو قريب لا يحتاج صاحبه إلى تعب في بلوغه. قد يميل الغصن إليه حيث اتكأ، وقد يجد الثمرة عند إرادته، فلا مسافة بين الرغبة وعطاء الرحمن. في الدنيا يقف الإنسان طويلاً أمام ثمرته؛ يزرع، ويسقي، وينتظر، وقد تأتي آفة قبل الحصاد فتذهب بما صنع. أما الجنة فدار الجزاء، ولذلك يختفي منها تعب الوسيلة؛ دنا الجنى لأن أهلها حملوا في الدنيا مشقة السعي، وجاء وقت الثمرة التي لا يسبقها خوف ولا يلحقها فناء.

وقرب الجنى يحمل معنى يتجاوز الثمر إلى قرب الإكرام كله. كم بدت للإنسان في الدنيا غاياته بعيدة، وكم مشى نحو الله وهو لا يرى أثر خطواته، وكم دعا وتأخر الجواب في حسابه، فظن أن الطريق لا ينتهي. ثم إذا دخل الجنة وجد أن كل ما حسبه بعيداً قد صار دانياً، وأن المسافة التي أتعبت لم تكن إلا طريق التربية الذي أهله للوصول. الأبد قريب من جهة الحقيقة وإن بدا بعيداً من جهة الشعور، فما بين الإنسان وبدايته لحظة ميلاد، وما بينه وبين آخرته لحظة موت لا يعرف موعدها.

ثم يتردد السؤال بين الفرش والثمر: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أبنعمة الراحة بعد التعب؟ أم بأمن الباطن وجمال الظاهر؟ أم بالثمر الذي لا يُطلب فيمتنع؟ إن النعمة هنا ليست فقط فيما يُعطى، بل في إزالة المسافة بين الحاجة وإشباعها، وإزالة الخوف بين النعمة وبقائها. وهذه هي الرفاهية التي لا تملك الدنيا أن تمنحها مهما اتسعت؛ فقد تعطي الإنسان الشيء، لكنها لا تعطيه ضمان ألا يفقده، ولا تضمن له بقاء القدرة على الاستمتاع به. وحده الرحمن يمنح النعمة والأمان عليها، واللذة والسلام من نهايتها.

جمالٌ لم تَمسسه يدُ الابتذال

﴿فَمِنْ قَاصِرَاتِ الطُّرَفِ لَمْ يَطْمِثْنِ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ *
كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾

ثم ينتقل الوصف إلى نعمة الأنس والجمال الإنساني: ﴿فَمِنْ قَاصِرَاتِ الطُّرَفِ﴾. لم يبدأ بوصف الجسد، بل بدأ بالطرف؛ لأن العين نافذة التوجه، ولأن أجمل ما في العلاقة ليس الصورة وحدها، بل الوفاء الذي يجعل القلب مكتفياً بحبوه. قاصرات الطرف، لا تمتد أبصارهن رغبةً إلى غير أزواجهن، وقد اجتمع في القصر هنا العفة والرضا وكال التعلق. إن الجنة لا تمنح جمالاً يوقظ قلق المقارنة أو خوف الخيانة، بل تمنح حباً آمناً لا يبحث صاحبه عن بديل، ولا يشعر الآخر فيه أنه مهدد بنظرة شاردة.

وفي هذا الوصف تصحيحٌ عميق لفكرة الجمال؛ فالجمال الذي يملأ العين ويترك القلب خائفاً ناقص، والعلاقة التي تقوم على الانبهار الخارجي وتفتقر إلى السكينة معرضة للذبول عند أول تغير. أما الجمال القرآني هنا فتصل بالطهر والخصوصية والوفاء. إن الطرف المقصور ليس سجنًا للنظر، بل اكتمالٌ يغنيه عن التشتت؛ فالنفس لا تطوف وراء البدائل حين تجد تمام أنسها. والشهوة في الجنة لا تكون قوةً مضطربةً تهدد الإنسان، بل نعمةً صافيةً اندمجت مع المودة والرضا والأمان.

﴿لَمْ يَطْمِثْنِ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾؛ في الوصف طهارةً وخصوصيةً وعدم مساسٍ سابق، تأكيداً على أن هذا النعيم لم يتبدل يدٌ ولم تحُدش صفاءه تجربة. وما يقدمه القرآن هنا ليس صورةً استهلاكيةً للجمال، بل جمالاً محفوظاً في كرامته، داخل علاقةٍ لا ظلم فيها ولا استغلال. كل ما في الجنة منزّه عن القصد الأخلاقي الذي يفسد لذات الدنيا؛ فلا خيانة، ولا ابتزاز، ولا امتهان، ولا خوفٌ من أن يكون أحدٌ مجرد وسيلةٍ لمتعة الآخر.

ثم يأتي السؤال الذي يخاطب الإنس والجان معاً: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾. إن من نعم الله أن الفطرة التي خلقها في الإنسان لا تلغى في الجنة، بل تطهر وتكمل؛ فلا تستزع منه حاجته إلى الأنس، وإنما يعطى الأنس بلا ألم، ولا يجرد من حبه للجمال، بل يلقي الجمال بلا فتنةٍ ولا فراق. الدين لا يريد تحويل الإنسان إلى حجرٍ لا يشتهي ولا يحب، بل يريد أن يحرق حبه من الظلم، وشهوته من العبودية، وعلاقاته من الابتذال؛ حتى إذا جاء يوم الجزاء أعيدت إليه رغباته في صورة لا تناقض نقاء الروح.

ثم يرسم القرآن الصورة بلونين من كنوز الأرض والبحر: ﴿كَانَ هَئِنَ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾. الياقوت في صفائه وإشراقه وصلابته النفيسة، والمرجان في جمال لونه وبهائه؛ كأن الجمال يجمع النور واللون، والصفاء والقيمة. وليس التشبيه مجرد مقارنة مادية، بل نقل للإحساس الذي يبعثه الحجر الكريم: شيء محفوظ، نادر، صافٍ، يلتقط الضوء ثم يرده جمالاً. ولأن ما في الجنة فوق ما عرف الإنسان، تأتي الكاف لتقرب ولا تحيط؛ تعطي انخيلال طريقاً، لكنها لا تدعي أنه بلغ الحقيقة.

وقد مرّ المرجان في السورة خارجاً من البحرين، ثم عاد هنا صورةً للجمال في الجنة؛ وكأن نعم الدنيا مفرداتٌ أولى يتعلم بها الإنسان لغة النعيم الأخروي. يرى المرجان هنا لكي يستطيع أن يتلقى غداً وصفاً يقرب إليه ما لم ير، ويتذوق الفاكهة ليعرف من بعيد معنى فاكهة الجنة، ويجلس تحت الشجر ليفهم شيئاً من الأفان، ويسمع جريان الماء ليستعد لذكر العينين. الدنيا ليست نقيض الآخرة من كل وجه، بل هي أيضاً معرضُ إشاراتٍ ناقصة، تدرب الحواس على فهم الوعد، ثم تظل الحقيقة هناك أعظم.

ويتكرر السؤال بعد التشبيه: ﴿فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تُكْذِبَانِ﴾. مرةً بعد طهر العلاقة، ومرةً بعد جمال الصورة؛ لأن النعيم الكامل يجمع الأخلاق والجمال، ولا يضحي بأحدهما للآخر. كم من جمالٍ أرضي أفسدته الأخلاق، وكم من أخلاقٍ طيبة عاشت في صورةٍ لم يمنحها الناس حق النظر؛ أما الجنة فمقام المصالحة الكاملة بين الحسن الظاهر والحسن الباطن، حيث لا يكون الصفاء قناعاً، ولا تكون الصورة ستاراً يخفي نقص الروح.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تَكْذِبَانَ﴾

بعد الأفنان والعيون، والفاكهة والفرش، والجنى الداني، والجمال المصون، تأتي الآية التي تجمع المشهد كله في قانون من أصفى قوانين الوجود: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾. سؤال لا ينتظر جواباً؛ لأن الفطرة نفسها تجيب: لا جزاء للإحسان إلا الإحسان. لكن المسافة بين إحسان العبد وإحسان الرب لا تُقاس؛ العبد يحسن بقدرة محدودة، وفي زمنٍ محدود، وقد يختلط عمله بالقص والغفلة، ثم يجازيه الله بإحسانٍ كاملٍ أبدي. ليست المماثلة هنا في المقدار، بل في اسم الجنس؛ أحسن العبد بما استطاع، فأحسن الله إليه بما يليق بكرمه.

وما الإحسان الذي أوصل صاحبه إلى هذه الجنتين؟ إنه أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه؛ وهنا يتصل الإحسان بقوله: ﴿وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾. الخوف ليس حالةً منفصلةً عن الإحسان، بل هو أثر استحضار النظر الإلهي؛ وحين يعيش الإنسان تحت هذا الاستحضار، يحسن صلاته حين لا يراه الناس، ويحسن إلى الضعيف الذي لا يستطيع رد الجميل، ويحسن الكلمة حين يقدر على الجرح، ويحسن الحكم حين يميل الهوى، ويحسن الصبر حين لا يجد من يصفق له.

الإحسان هو أن تتجاوز برودة الواجب إلى حرارة القلب؛ ألا تعطي الحق فقط، بل تعطيه بوجهٍ لا يجرح كرامة آخذه، وألا تعفو عجزاً بل قدرةً ورحمةً، وألا تقول الصدق كحجرٍ تقذف به الناس، بل نوراً يدهمهم. قد يؤدي الإنسان العمل صحيحاً في ظاهره، لكنه يترك وراءه قلوباً مكسورةً بسبب قسوة الأداء؛ أما المحسن فيعلم أن الله لا ينظر إلى صورة الفعل وحدها، بل إلى الروح التي جرت فيه. الإحسان جمال الطاعة، كما أن العدل استقامة ميزانها.

والإحسان ليس رتبةً ترفيةً بعد اكتمال الضروريات الأخلاقية، بل هو الذي يمنع الخير من أن يتحول إلى آلهٍ بلا روح. العالم لا يعاني فقط من قلة الأعمال الصالحة، بل من أعمالٍ صحيحةٍ تؤدي بقلوبٍ غائبة، ومن كلماتٍ حقٍّ تُقال بنفوسٍ متعالية، ومن علاقاتٍ تحفظ الشكل وتفقد الرحمة. الإحسان هو أن يكون باطنك أجمل من حاجتك إلى الظهور، وأن تصنع الخير ولو علمت أن اسمك سيُحذف من حكايته، لأنك لم تكن نتاج مع ذاكرة الناس، بل مع وجه ربك الباقي.

وقد يكون أعمق الإحسان أن تحسن في الموضع الذي لم يُحسن فيه إليك؛ لأن رد الجميل طبيعي، أما صناعة الجميل وسط القبح فعبادة عظيمة. حين تمنعك إساءة الآخر من أن تتحول إلى نسخة منه، تكون قد حفظت روحك قبل أن تحسن إليه؛ وحين تعدل مع من ظلمك، لا تعني أنك أقت الظلم أو ألغيت حقك، بل تعني أن خصمك لم ينجح في إسقاط ميزانك. المحسن لا يترك الشر يحدد شكل قلبه، ولا يمنح المسيء سلطة أن يصنع منه إنساناً آخر.

ثم إن الإحسان هنا يشمل إحسان الله السابق قبل إحسان العبد؛ فقد علم القرآن، وخلق الإنسان، وعلمه البيان، ووضع له الأرض والميزان، وأراه الطريق، ثم طلب منه أن يردّ على الإحسان بالإحسان. كل طاعة من العبد مسبقة بنعمة من الرب، بل القدرة على الطاعة إحسانٌ إلهي آخر. فإذا دخل العبد الجنة لأنه بدأ سلسلة الفضل، بل لأنه استجاب لفضل أحاط به، ثم تفضل الله فقبل استجابته وضاعف جزاءها. من هنا يسقط العجب؛ لأن المحسن يعلم أن يده التي أعطت كانت عطية، وقلبه الذي رقى كان عطية، والفرصة التي وجدها للإحسان كانت عطية.

وفي بنية الآية تناغمٌ أخذ بين الكلمتين المتماثلتين: ﴿الإِحْسَانُ﴾ و﴿الإِحْسَانُ﴾. اللفظة واحدة، لكن جهة الفعل تتغير؛ الأولى تصعد من العبد فقيرةً محدودة، والثانية تنزل من الرب واسعةً كريمة. بينهما أداة الحصر ﴿إِلَّا﴾، كأن الكون الأخلاقي محمٌّ بهذا القانون: الخير الذي تودعه عند الله لا يضيع، والجمال الذي تزرعه في الطريق سيعود إليك في صورةٍ يعلمها الله، وإن لم يعد من الشخص نفسه ولا في الزمن الذي توقعته.

وهذا يداوي جرحاً عميقاً عند من أحسنوا ولم يجدوا من الناس جزاءً؛ فقد تُقابل التضحية بالنسيان، والوفاء بالجود، والكلمة الطيبة بالصمت، فيتساءل القلب: أين ذهب ما بذلت؟ فتأتي الآية لتفك ارتباط الإحسان بذكرة البشر: جزاؤك ليس معلقاً بقدرتهم على الاعتراف، ولا بأخلاقهم في رد الجميل؛ إنه عند الله. قد ينكر الناس إحسانك لأن اعترافهم يثقل غرورهم، وقد ينسونه لأن ذاكرتهم أسيرة مصالحهم، لكن الله لا ينسى، وما كان له لا يضيع.

غير أن الآية لا تمنح الإنسان تصريحاً ليشهد لنفسه بالإحسان كيف يشاء؛ فقد يظن أنه أحسن بينما آذى، أو يمنّ بما أعطى فيبطل جماله، أو يطالب الله بجزاءٍ عملٍ أفسده طلب الظهور. الإحسان مقامٌ افتقارٍ لا منصةٌ تفاخر؛ كلما ارتقى فيه العبد رأى نقصه أكثر، لأن قربه من الجمال الإلهي يكشف له خشونة نفسه. ولهذا يبقى بين الخوف والرجاء: يخشى ألا يُقبل عمله، ويرجو كرم من لا يضيع أجر المحسنين.

ثم يأتي السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وهل من نعمةٍ أعظم من أن يكون الوجود الأخلاقي غير أصم، وأن تكون للحسنة ذاكرةٌ عند الله لا يطاها الفناء؟ في دنيا يضيع فيها كثير من المعروف بين ضجيج المصالح، يمنحك الوحي يقيناً بأن كل إحسان صادق قد عبر من الزمن إلى الأبد. قد ينتهي أثره من عينك، لكنه لا ينتهي من علم الله، وقد تُغلق القصة في الأرض بلا شكر، لكنها تفتح في السماء على جزاء.

وهكذا تصبح الجنتان كلتاهما شرحاً حسياً لهذه الجملة: الأفنان جوابٌ عن صبرٍ تفرعت وجوهه، والعينان جوابٌ عن عطش الروح إلى الله، والفاكهة جوابٌ عن شهوةٍ ضبطها صاحبها، والفرش جوابٌ عن تعب الطاعة، والجنى الداني جوابٌ عن طريقٍ طال، والجمال المصون جوابٌ عن عفةٍ حمت القلب والجسد. كل نعيمٍ هناك يقول بطريقته: لم يذهب إحسانكم سدى.

لكن كرم الرحمن لا يقف عند هاتين الجنتين، فبعد أن يظن الخيال أنه بلغ نهاية الوصف، تقول السورة: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. كأن أبواب الفضل لا تنتهي عند الحد الذي تستطيع النفس أن تتصوره، وكأن وراء الجمال جمالاً آخر، ووراء الأفنان خصرةٌ أعمق، ووراء العيون نبعاً جديداً. إن عطاء الرحمن لا يُستنفد بوصف، ولا تنتهي خزائنه عند أول مقامٍ من مقامات النعيم.

وراء الجنتين جنتان

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

حين يظن الخليل أنه استوفى طاقته في تصور الجنتين الأوليين، وأن الأفئدة والعيون والفاكهة والفرش والجنى الداني قد بلغت بالنعيم أقصى ما تحتمله اللغة، تفتح السورة باباً آخر: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. إن كرم الرحمن لا ينتهي عند الحد الذي يتوقف عنده مخيلة الإنسان، فما إن يضع العقل خطاً يظنه نهاية حتى يكشف الوحي أن وراء الخط امتداداً، وأن وراء العطاء عطاء، وأن خزائن الله لا تتقف عند صورة واحدة من صور الإكرام.

وقد تكون هاتان الجنتان دون الأوليين في المنزلة، أو أقرب إلى أهلهما، أو غيرهما من جنات الفضل، وفي كل معنى إشارة إلى تفاوت المقامات بحسب تفاوت القلوب والأعمال. فالجنة دار العدل كما أنها دار الرحمة؛ لا يضيع فيها سبق السابقين، ولا يهدر فيها صدق المقتصدين، ولكل منزلته التي تليق بما قدّم، ثم يحيط الفضل بالجميع. ليست المساواة العمياء عدلاً؛ إذ كيف يستوي من جاهد نفسه في السر والعلن بمن قارب الطريق متردداً، وكيف يكون من بذل عمره للفق كمن ألقى في آخر الطريق خطوة متأخرة؟ لكن رحمة الله واسعة، ترفع كل مؤمن إلى مقام ينسب فيه ألم النقص، ولا يجد في صدره حسداً على من فوقه.

وفي قوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾ إيحاء بأن مراتب النعيم لا تفسد أخوة أهلها؛ لأن الجنة قد طُهرت من المقارنة المؤلمة التي تفسد نعم الدنيا. في الأرض قد يكون ما في يد غيرك سبباً في أن تفقد لذة ما في يدك، لا لأن نعمتك نقصت، بل لأن عينك تركتها وذبحت إلى نعمة الآخر. أما في الجنة فقد نزع الغل من الصدور، وصار كل إنسان ممتلئاً بما أُعطي، يرى فضل غيره فيحمد الله دون أن يشعر أن ذلك الفضل إدانةٌ لنصيبه. اكتمال النعمة ليس في كثرة الشيء فقط، بل في قلب لا يعذبه قياسه بما عند الآخرين.

ويعود السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. بأي فضل في هذه الزيادة يقع التكذيب؟ أبتعد المنازل الذي يحفظ معنى العدل، أم بسعة الرحمة التي لا تحرم أهل الإيمان، أم بكرم يكشف جنة وراء جنة؟ إن الإنسان يضيق عطاؤه كلما كثر الآخذون، أما عطاء الله فلا تراحم فيه، لا تنقص جنتك لأن غيرك أُعطي جنة، ولا تضيق أرض الخلود بكثرة أهلها، ولا يحتاج

الرحمن أن يمنع عبداً ليزيد آخر. وفي هذا وحده راحة لا تعرفها الدنيا التي تقوم كثير من نزاعاتها على ظن أن نصيب الآخر مقتطعٌ من نصيبنا.

خضرةٌ من شدة الري تكاد تسودُ

﴿مُدْهَامَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

تصف السورة الجنتين بكلمة واحدة: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾. غير أن هذه الكلمة أشبه بغابةٍ كاملة طُويت داخل حروف؛ فهي تدل على شدة الخضرة حتى تميل من ربها وكثافتها إلى السواد. لا جفاف في الورق، ولا صفرة ذبولٍ تتسلل إلى الأطراف، ولا أرض قاحلة بين الأشجار، بل خضرةٌ مكتنزة بالحياة، عميقة اللون، ممثلةٌ بماءٍ لا ينقطع.

وما أبدع جرس الكلمة؛ فخروفها المشددة وامتدادها الصوتي يمنحان الإحساس بالكثافة والامتلاء. ليست ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ كلمةً عابرةً خفيفة، بل لفظةٌ تكاد تستقر بثقل خضرتها في الحس، حتى يرى القارئ اللون قبل أن يفرغ من نطقها. وقد يصف الكاتب مشهداً بسطور، فيجمع القرآن ذلك المشهد في مفردةٍ لم يكن غيرها ليؤدي كثافتها ودقة ظلها.

والخضرة في النفس لون الحياة والراحة والتجدد؛ العين تستريح إليها لأنها تردّها إلى معنى النماء، والقلب يأنس بها لأنها تنفي عنه صورة الجذب. وأهل الجنة قد عبروا في الدنيا مواسم روحيةً متقلبة؛ أحياناً يزهر الإيمان في قلوبهم، وأحياناً يصارعون اليبس والفتور، وقد يعملون الطاعة ولا يجدون لذتها، ويتمسكون بالحق في زمنٍ تبدو فيه أشجاره قليلة الظلال. ثم يدخلون داراً لا تعرف مواسم الجفاف، ولا تحتاج أرواحهم فيها إلى مجاهدةٍ كي تبقى حيّة؛ فقد انتهى امتحان الثبات، وصار الخضر حالاً أبدية.

إن الجنة ليست مكافأةً خارجيةً تُضاف إلى المؤمن فحسب، بل هي اكتمالٌ لكل بذرة خيرٍ سقاها في نفسه. التسبيحة التي بدت صغيرةً في الدنيا قد يكون لها هناك ظل، والدمعة التي نزلت في خلوةٍ قد تزهر، والقرار الذي قاوم به شهوةٌ لا يعلم بها الناس قد يصير لوناً في تلك الخضرة. نحن لا نعرف كيف تتحول الأعمال إلى نعيم، لكن القرآن يعلمنا أن الأخلاق ليست أصواتاً تبدد، وأن الروح تزرع مصيرها في كل اختيار.

ثم يأتي السؤال بعد لونٍ واحدٍ أغنى عن مشهدٍ كامل: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أليس من الآلاء أن تكون نهاية الصبر حياةً لا تذبل، ونهاية العطش خضرةً لا تجف؟ ومن عرف أن الله يحفظ البذرة تحت التراب لا ينبغي له أن ييأس من خيرٍ زرعه ولم ير ثمثته؛ فربما مات قبل أن يرى أثره في الأرض، لكنه سيحده مدهاماً في الآخرة.

عينان لا تجريان بل تفوران

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَاَنِ * فَيَايَّ الْآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾

كانت العينان في الجنتين الأوليين ﴿تَجْرِيَانِ﴾، وهنا هما ﴿نَضَّخَتَاَنِ﴾؛ تفوران بالماء وتنبعان في قوة وامتلاء. هناك امتداد الجريان، وهنا غزارة المنبع، وفي صورتين حياةً متجددة، لكن لكل مقامٍ نعمته الخاصة. الجريان يرسم طريق الماء، والنضخ يرسم لحظة ولادته من الأرض، كأن الرحمة لا تصل إلى أهل الجنة وافدةً من بعيدٍ فحسب، بل تنفجر من موضع إقامتهم.

وفي وصف العينين بالفعل الدائم صورةً لنعمةٍ لا يخاف صاحبها النضوب. أهل الدنيا لا يكادون يفرحون بعين ماءٍ حتى يسألوا: هل تجف؟ ولا بموردٍ حتى يقلقوا من نفاذه؛ لأن موارد الأرض محكومة بالحدود والمواسم. أما الجنة فهي دارٌ لا يحمل فيها الماء خبر نهايته، ولا تتضمن اللذة بذرة الفناء. كل نضخة تؤكد أن الخزان لا يفرغ، وأن الغد ليس خصماً لليوم، وأن الاستمتاع الحالي لا يقتطع من حصة المستقبل.

وهذا هو الفارق العميق بين نعيم الدنيا ونيعم الآخرة؛ ففي الدنيا تقف حسابات النقص خلف كثيرٍ من سعادتنا. ندخر لأن القادم مجهول، ونخشى لأن الموجود قابلٌ للزوال، ونحذر من الفرح كي لا يفجعنا فقده. أما حين تكون العين نضاجةً بأمر الرحمن، يسقط اقتصاد الخوف كله؛ لا بخل، ولا احتكار، ولا صراعٌ على مورد، لأن الوفرة الأبدية تطهر النفس من الدافع الذي جعلها تراحم غيرها.

وقد يكون الإنسان في دنياه عيناً نضاجةً بالخير أو حفرةً تبتلع ما يصل إليها؛ يعطي العلم، ويجري الكلمة الطيبة، ويصب الرحمة في قلوب الناس، أو يجمع كل شيءٍ عنده ولا يسمح للنعمة أن تعبر منه إلى أحد. وما أجمل أن يتشبه العبد في حدود بشريته بهذه الصورة: كلما أتاها خيرٌ جعله جارياً، وكلما تعلم معنىً نافعاً لم يحتكره، وكلما شعر بحنانٍ لم يحبس خلف قسوةٍ مصطنعة. النعمة التي تجري تبقى آثارها، والنعمة التي تُحبس قد تنعفن في يد صاحبها.

ثم يعود السؤال: ﴿فَيَايَّ الْآءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ﴾. بأيّ نعمةٍ في هذا الفوران يقع الإنكار؟ بالماء، أم بالدوام، أم بالأمان من الانقطاع؟ إن العطايا لا تُقاس بأعيانها فقط، بل بما أزيل عنها من المخاوف؛ وكما العينين ليس في مائهما وحده، بل في اليقين أنهما لن تخذلا عطشاً، ولن يصيبهما غورٌ، ولن يستولي عليهما قويٌ يمنع دونهما الضعفاء.

فاكهة ونخل ورمان

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

تعود الفاكهة مرة أخرى، لكن السورة تخص من أجناسها النخل والرمان: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. والخاص داخل في العام، غير أن تخصيصه يخرج من ذوبان الإجمال، وقيمه أمام الحس بهيئته وطعمه ولونه. النخل بما فيه من شموخ وعطاء واكتمال منفعة، والرمان بما يحمله غلافه من حبات كثيرة مصطفة في جمال؛ صورتان من الوفرة المحكمة، كأن إحداها درس في الارتفاع، والأخرى درس في النظام المستور.

وقد ذكر النخل في نعيم الأرض ﴿ذَاتِ الْأَكْمامِ﴾، ثم عاد في الجنة بلا حديث عن مراحل النمو والانتظار؛ لأن دار الجزاء لا تعيد تعب الزراعة، بل تعطي صفوة الثمرة. في الدنيا يحتاج الثمر في أكمامه، ويتدرج حتى ينضج، وقد يتعرض في طريقه لآفة، أما هناك فقد انقضى زمن التكوين القلق، وصار النعم حاضراً عند إرادة أهله. وهكذا تنصل صور السورة بعضها ببعض: ما كان في الأرض وعداً صغيراً يعود في الجنة حقيقة مطهرة من النقص.

والرمان من أعجب صور الوحدة التي تحتضن الكثرة: غلاف واحد، وفي داخله حبات كثيرة، لكل حبة حدّها، لكنها تنتظم مع أخواتها في بناءٍ بدعي. وكأنها تذكر، حتى في مقام التدقيق، بمعنى الميزان الذي افتتحت به السورة بناء الكون؛ فلا فوضى في أصغر الثمار، كما لا فوضى في مسارات الأجرام. يد الرحمن التي ربت الشمس والقمر بحسبان هي التي ربت الحبات داخل قشرها، فلا يزدي المتأمل الصغير بعد أن رأى توقيع النظام فيه.

وفي ذكر الفاكهة بعد العيون انتظامٌ يلائم سنن الخلق: ماء ثم ثمر، وإن كانت الجنة غير خاضعة لضرورات الدنيا؛ لكنه خطاب يقرب الغيب إلى وعينا بما نعرفه من اتصال السقيا بالنماء. والقرآن لا يقتلع الإنسان من حواسه حين يحدثه عن الآخرة، بل يصعد بها؛ يخاطب ذائقته وبصره ولمسه وخياله، لأن خالق الروح هو خالق الجسد، ولا تناقض في الجنة بين صفاء المعنى وبهجة الحس.

ثم يأتي السؤال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وفي تكرره بعد كل تفصيل تربية على ألا نبتلع النعم في كل مجمل؛ فن قال: الحمد لله على كل شيء، ثم لم يتوقف عند شيء بعينه، قد يظل شكره غائماً. السورة تعلننا شكر التفاصيل: هذه فاكهة، وهذا نخل، وهذا رمان، وهذه عين،

وهذا غصن. وكلما سميت النعمة خرجت من ضباب الاعتياد، وصارت أكثر حضوراً في قلبك؛ والشكر يبدأ من دقة الرؤية.

خيراتٌ حسان وخيامٌ من الطمأنينة

﴿فَإِنَّ خَيْرَاتِ حَسَنَ * فَإِنَّ الْآءَ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ *
فَإِنَّ الْآءَ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ﴾

تجمع الآية بين الخير والحسن: ﴿فَإِنَّ خَيْرَاتِ حَسَنَ﴾. خيرٌ في الباطن، وحسنٌ في الظاهر؛ فلا ينفصل الجمال عن الفضيلة، ولا تكون الصورة الفاتنة غطاءً لروح خاوية. وهذا هو الكمال الذي يتعذر في الدنيا؛ فكثيراً ما يتوزع الحسن بين ظاهرٍ وباطن، وقد يلعب الوجه بينما يظلم القلب، أو يصفو القلب ولا تنصفه العيون المأسورة بالمظاهر. أما الجنة فتتدرّ الأجزاء إلى وحدتها، فيكون الحسن أميناً على الخير، ويكون الخير مشرقاً في الصورة.

وفي الجمع بين ﴿خَيْرَاتٍ﴾ و﴿حَسَنَ﴾ جوابٌ عن انقسام فلسفي عميق في التجربة الإنسانية بين النافع والجميل، فالإنسان قد يجد ما ينفعه ولا يبهجه، أو ما يبهجه ثم يضره، ويظل يطارد نقطةً يتحد فيها الخير والجمال. في الجنة تنتهي الخصومة بينهما؛ لا لذةً تعقبها حسرة، ولا جمالاً يقود إلى فساد، ولا منفعةٌ تأتي في هيئةٍ منفرة. ما هو حسنٌ خير، وما هو خيرٌ حسن، لأن الخلل الذي فرق بين القيم في عالم الامتحان قد زال.

ثم تقول: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾. الحور جمع حوراء، وفيه صفاء العين وشدة تباين بياضها وسوادها، والمقصورات مصوناتٌ مستورات، قد قصرن أنفسهن على أزواجهن، وفي الخيام معنى الستر والاختصاص والسكن. وليست الخيام هنا صورة البداوة المحدودة التي تنبأ إلى التجربة الأرضية، بل خيامٌ من نعيم الجنة، يعرفها الوحي بالاسم الذي يقرب معنى الاحتواء والأنس، ثم تبقى حقيقتها فوق ما تخيل الإنسان.

والخيمة من جهة رمزٌ لفضاءٍ داخلي خاص، ينسحب إليه الإنسان من اتساع الخارج؛ فليست السعادة كلها في الحداثى المفتوحة والعيون الجارية، بل يحتاج القلب إلى موضع يشعر فيه أن الأنس له، وأن العلاقة ليست معرضاً عاماً. ومن جمال الجنة أنها تجمع سعة البساتين ودفع الخيام، انفتاح المشهد وخصوصية اللقاء؛ فلا الوحدة عزلة، ولا الاجتماع ضياع للنصوصية.

ووصفهن بالمقصورات لا يوحي بحبسٍ قهري، فالجنة لا مكان فيها للقهر والألم، بل يدل على الصيانة والاكتفاء والاختصاص. الفرق بعيد بين سترٍ يحفظ الكرامة وقيدٍ يسلب الإرادة؛

والقرآن يصف نعيماً طاهراً لا تدخل فيه المعاني المظلمة التي أفسدت علاقات الدنيا. لا يملك أحدٌ أحداً على معنى الاستعباد، ولا يكون الجمال غنيمةً، بل الجميع مكرمون، مطهرون من الأذى، وقد نزع الله من الصدور كل ما يحول الأنس إلى ظلم.

ويتكرر السؤال بعد انخيار الحسن، ثم بعد الحور المقصورات: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. مرةً للصفات، ومرةً للمشهد الذي يحتضنها؛ لأن النعمة ليست في وجود الآخر فقط، بل في طبيعة العلاقة به. كم من إنسانٍ أحاط به الناس وبقي وحيداً، وكم من بيتٍ امتلأ بالأجساد وخلا من الأنس؛ أما الجنة فتعالج جوع القلب إلى الصحبة، لا بمجرد الحضور، بل بحضور آمنٍ جميلٍ مكثفٍ لا تفسده الخيانة ولا سوء الظن.

نعم لم تَمَسَّه يدُ الفناء

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * فَيَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

يتكرر وصف الطهر الذي ورد في الجنتين الأوليين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾. والتكرار هنا ليس إعادة بلا زيادة، بل تثبيت لقيمة الطهر في المقامين معاً، فهما تفاوتت درجات النعيم، يبقى الصفاء أصلاً جامعاً، ولا تدخل الجنة علاقة ملوثة بتاريخ الأذى أو الابتذال. كل شيء فيها جديدٌ على صاحبه، محفوظٌ له، لا يحمل ذاكرةً تخرج خصوصيته.

والإنسان في الدنيا لا يتألم من الفقد وحده، بل قد يتألم من المقارنة ومن الشعور بأنه جاء متأخراً إلى الأشياء، وأن أجمل ما أحب قد حمل آثاراً لم يكن جزءاً منها. أما الجنة فتطهر النعمة حتى من هذه الخواطر، فلا ماضٍ ينازع الحاضر، ولا ذكرى ترمي ظلها على صفاء اللقاء، ولا شعور بأن القلب يتقاسم موضعه مع غائب. هناك حضورٌ خالصٌ لا تفتته الأزمنة.

وإن كان ظاهر الآية متعلقاً بالطهر الحسي، فإنها تستدعي معنىً أوسع في الروح: الجنة كلها نعمةٌ لم تمسها يد الفناء. لم تُستعمل حتى بليت، ولم تمر عليها الأيام حتى ذبلت، ولم تتناقلها الأيدي حتى فقدت دهشتها. في الدنيا يصل الإنسان إلى أشياء كثيرة بعد أن ترك الزمن عليها غباره؛ أما نعيم الرحمن فطازجٌ على الدوام، لا يشيخ مهما امتد الأبد.

ثم يعود السؤال: ﴿فَيَايَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أليس الطهر نعمةً مثل الجمال؟ بل قد يكون الطهر هو الذي يمنح الجمال قابليته للبقاء؛ لأن اللذة إذا حملت في داخلها ذنباً أو خيانة تحولت سريعاً إلى مرارة. أما الجنة فتنزح من المتعة شوكتها، ومن العلاقة خوفها، ومن الجمال احتمالات فسادها، فلا يبقى إلا الإكرام الصافي.

خُضْرَةُ الْوَسَائِدِ وَعَبْقَرِيَّةُ الْجَمَالِ

﴿مُتَكَيِّنَ عَلَى رَفْرِفِ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبَآئِيَ آلَاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾

تعود هيئة الاتكاء، لكن الفرش هنا توصف بالرَفْرِفِ الخضر والعبقري الحسان. ﴿مُتَكَيِّنَ﴾، الكلمة نفسها التي رأيناها في الجنتين الأوليين، كأن الراحة أصل مشترك بين أهل النعيم، وإن اختلفت تفاصيل مجالسهم. لقد انتهى الوقوف الطويل في ساحة التكليف، وانقضى الركض خلف ضروريات الحياة، ولم يعد الجسد يحمل توتر الترقب؛ فكل جلوس هناك آمن، وكل اتكاء إعلان أن لا خطر قادماً يقطع السكينة.

والرَفْرِفِ قد يكون الوسائد أو البُسط أو ما تدلّ من أفانين الجنان، وكل المعاني تلتقي في نعمة المشهد وخضرته. الخضرة لا تكتفي بأن تملأ الأشجار في قوله: ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾، بل تمتد إلى مجالس أهلها، كأن اللون نفسه يحيط بهم من فوقهم وتحتم، ويحول النعيم إلى حضنٍ بصريٍّ كامل. إنها ليست خضرة تُرى من بعيد، بل خضرة يتكون عليها وتلامس راحتهم.

أما ﴿عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فهي الطنافس الفاخرة العجيبة المتقنة، حتى صارت العبقرية في اللسان وصفاً لما يفوق المألوف. وكأن اللفظة تفتح أمام الخيال صناعة لا يشبهها نسيج الأرض؛ جمال ليس نتيجة مهارة بشرية محدودة، بل من خلق الذي علم الإنسان البيان والجمال. وكل ما نسميه في الدنيا عبقرياً ليس إلا ظلاً بعيداً من إمكانيات القدرة الإلهية؛ فإذا كان الله قد منح البشر عقولاً تنتج الفن والصناعة المدهشة وهم في دار النقص، فكيف بما أعدّه بنفسه لأهل كرامته في دار الكمال؟

وفي جمع ﴿خُضْرٍ﴾ و﴿حِسَانٍ﴾ موسيقى لونية ووجدانية؛ اللون يعانق القيمة، والحس لا يفصل عن المعنى. الجنة لا تقدم الراحة مجردة من الجمال، ولا الجمال منفصلاً عن الراحة؛ فما يهيج العين يطمئن القلب، وما يلين للجسد يرفع الروح. في الدنيا قد يدفع الإنسان ثمن الفخامة قلناً وتكلفاً، وقد يجرس ما يملكه أكثر مما يستمتع به؛ أما هناك فلا حراسة ولا خوف ولا استعراض، لأن النعمة ليست أداة لإثبات التفوق، بل عطاءً خالصاً لاطمئنان.

ثم يأتي السؤال للمرة الأخيرة قبل خاتمة السورة: ﴿فَبَآئِيَ آلَاءَ رَبِّكَ تَكْذِبَانِ﴾. لقد عبر السؤال أطوار الوجود كلها؛ سألنا عند القرآن والخلق، وعند الشمس والقمر، وعند الأرض والثمار، وعند أصل الإنسان والجان، وعند البحر والبرزخ، وعند الفناء والبقاء، وعند الحساب والنار،

ثم عند الجنان والعيون والفاكهة والفرش. لم يترك موضعاً يمكن للغفلة أن تختبئ فيه، ففي البدء نعمة، وفي النظام نعمة، وفي التحذير نعمة، وفي الجزاء نعمة، وحتى الفناء الذي نخشاه صابراً نعمة حميدة. دلّنا على ذلك.

الاسم الذي بدأ به النور وخُتم به الكتاب

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾

تنتهي السورة كما بدأت: بالله. بدأت باسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾، وانتهت بقوله: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ وبين البدء والخاتمة انتشر الوجود كله، كأن الأشياء خرجت من إشراق الاسم ثم عادت إليه. القرآن والإنسان، والبيان والميزان، والأرض والبحار، والفناء والحساب، والجنة والنار؛ جميعها محطات في طريق معرفة الرب الذي ابتدأت به السورة وخُتمت بحمده وتعظيمه.

﴿تَبَارَكَ﴾؛ تعاضم وتنزه، وثبت خيره، وكثرت بركاته، واتسعت عطاياه بحيث لا تحيط بها العبارة. والبركة ليست كثرةً عديدةً مجردة، بل خيرٌ ثابتٌ نام يتجاوز حدود الشيء الظاهرة؛ لحظةً يباركها الله قد تكون أوسع أثراً من سنين، وكلمةً يباركها قد تعبر أجيالاً، وعملٌ صغيرٌ يبارك فيه قد يفتح أبواباً لم يتوقعها صاحبه. وما السورة كلها إلا كشفٌ عن البركة التي فاضت من اسم الرحمن، فصارت علماً في القرآن، وحياةً في الإنسان، ونظاماً في الأفلاك، وورزقاً في الأرض، وعدلاً في الميزان، ونجاةً في الآخرة.

ولم تقل الخاتمة: تبارك ربك، بل ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾؛ فالاسم الذي يذكره العبد ليس حروفاً عابرةً على اللسان، بل بابٌ إلى المعرفة والتعظيم والأنس. باسم الله تبدأ الأعمال فتخرج من عزلة الذات إلى معنى العبودية، وبذكره تهدأ القلوب لأنها تتصل بالباقي، وتستمد الأشياء بركاتها بقدر اتصالها بمراحده. والإنسان الذي يعيش بلا اسم الله قد يملك الأشياء كلها، لكنها تبقى متناثرةً بلا مركز؛ فإذا دخل الاسم في وعيه اجتمعت حياته على قبلة.

إن الاسم لا ينتفع بتعظيم الإنسان، بل الإنسان هو الذي ينحو حين يعظمه. الله عظيمٌ قبل أن تسبحه الألسنة، وكريمٌ قبل أن تعرف الخلائق كرمه، لكن القلب حين يقول: تبارك اسم ربي، يتحرر من تعظيم ما لا يستحق التعظيم. ما أكثر الأسماء التي تضخمها الدنيا ثم يبتلعها النسيان، وما أكثر الوجوه التي ترتجف أمامها الجموع ثم تصير تراباً لا يسمع؛ أما اسم الله فلا يمر عليه زمن، ولا تزيده الطاعة ملكاً، ولا ينقصه الجحود جلالاً.

وتعود الإضافة الحانية: ﴿رَبِّكَ﴾. بعد كل مشاهد الجلال، لا يتركك القرآن أمام إله بعيد، بل يقول: ربك؛ الذي رعى خطواتك قبل أن تعيها، وأخرجك من الصلصال إنساناً، وعلمك

ما لم تعلم، ووضع لك الأرض، وأجرى فوقك الشمس والقمر، وأبقى لك باب السؤال مفتوحاً. إنه ذو الجلال الذي تنشق بأمره السماء، وذو الإكرام الذي يهيئ لعبده جنتين ثم يفتح وراءهما جنتين.

وقد جاء الوصف هنا مجروراً: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، متعلقاً بالرب، بعد أن ورد سابقاً: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وصفاً لوجهه سبحانه. وهكذا يتكرر الجمع بين الهيبة والكرم في موضع الفناء وفي موضع الخاتمة؛ فلا ينبغي للقلب أن يفصل أحدهما عن الآخر. من عرف الإكرام بلا جلال قد يتساهل حتى يسقط في الغرور، ومن عرف الجلال بلا إكرام قد يضيق حتى يقع في اليأس؛ أما العبودية السليمة فتمشي بجناحين: هيبة تمنع التمرد، ورجاء يمنع الانكسار القانط.

وإذا كانت السورة قد كررت سؤالها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإنها لا تختم بالسؤال، بل بالتعظيم؛ لأن الرحلة التي بدأت بمواجهة الغفلة ينبغي أن تنتهي باعتراف القلب. لقد سأل الوحي مرات كثيرة حتى استخرج من قاع النفس جوابها، ثم تركها أمام الاسم المبارك لا تملك إلا أن تسجد. كأن السورة تقول: بعد أن رأيت الآلاء في نفسك والكون ومصيرك، لا يبقى أن تعدد النعم فقط، بل أن تعرف مصدرها، وأن ينتقل لسانك من وصف العطاء إلى تعظيم المعطي.

كلُّ شيءٍ كان يقول: الرحمن

في نهاية سورة الرحمن نكتشف أننا لم نكن نعبر بين موضوعاتٍ متفرقة، بل كنا نسير داخل معنى واحد نعدد تجلياته. حين علّم الله القرآن كان ذلك رحمة، وحين خلق الإنسان وعلّمه البيان كان ذلك رحمة، وحين أجرى الشمس والقمر بحسبان كان ذلك رحمة، وحين وضع الميزان ونهى عن الطغيان كان ذلك رحمة، وحين بسط الأرض للأنام وأخرج منها الفاكهة والربحان كان ذلك رحمة. وحتى حين أخبرنا بالفناء والحساب والنار، كان ذلك رحمةً توقظ قبل أن تقع النهاية؛ ثم حين فتح الجنان، وأجرى العيون، ودلّى الثمار، وهبّ الفرش والأنس والأمان، ظهر وجه الرحمة في تمام الإكرام.

ولقد أعادت السورة بناء مفهوم النعمة في وعينا؛ فالنعمة ليست ما يوافق رغبتنا العاجلة فقط. النظام نعمة، والحد نعمة، والميزان نعمة، والتحذير نعمة، ومعرفة الفناء نعمة، والخوف الذي يردع القلب نعمة. قد تكون النعمة ماءً تشربه، وقد تكون برزخاً يمنع الماء من البغي؛ وقد تكون ثمرةً تقطفها، وقد تكون كلمةً تمنعك من نار؛ وقد تكون عطاءً يبهجك، وقد تكون نهايةً تسلب منك شيئاً فانياً لتردك إلى الباقي.

والمحور الذي انتظمت حوله السورة هو الميزان؛ فالشمس والقمر بحسبان، والبحران بينهما برزخٌ لا يبغيان، والسماء مرفوعة والميزان موضوع، والجزاء الأخروي ميزانٌ يردّ الإحسان إحساناً والجريمة جزاءً. كأن الوجود كلّهُ موزون، وحده الإنسان يستطيع أن يطغى، ولهذا كان خطابه الأخلاقي هو أن يعيد نفسه إلى نعمة الكون. حين يعدل يسير مع الشمس والقمر، وحين يسجد ينضم إلى النجم والشجر، وحين يلتزم الحد يتعلم من البحرين، وحين يحسن يدخل في قانونٍ لا يضيع فيه الخير.

أما السؤال المتكرر، فلم يكن تويحاً مجرداً، بل كان نبض السورة؛ كلما أوشكت النعمة أن تتحول في الوعي إلى منظرٍ مألوف جاء السؤال ليعيدها إلى أصلها. إنه مطرقةٌ رقيقةٌ تضرب صخرة الاعتیاد حتى يتفجر منها ماء الدهشة. وقد تغیر معنى السؤال مع كل عودة: عند الخلق يدعوك إلى معرفة الأصل، وعند الميزان إلى إقامة العدل، وعند الفناء إلى ترك التعلق، وعند النار إلى التوبة، وعند الجنة إلى الرجاء. اللفظة واحدة، لكن القلب السائر لم يبقَ واحداً؛ ففي كل مرة سقطت عنه طبقةٌ من الغفلة.

وهكذا يتعلم الإنسان أن التكذيب ليس مقالةً فلسفيةً ينطق بها اللسان فحسب، بل قد يكون أسلوب حياة. مَنْ أفسد الميزان كَذَّبَ به في فعله وإن أثبتته في كلامه، وَمَنْ احتقر نعمة البيان ففلاً بها الأرض كذباً كَذَّبَ بعطيته، وَمَنْ عاش على الأرض كأنها ملكه الأبدي كَذَّبَ بحقيقة الفناء، وَمَنْ رأى الخير فضلاً شخصياً لا هبةً من الله كَذَّبَ بالمنعم وهو يذكر اسمه. وفي المقابل، قد يكون الشكر سجدةً، أو عدلاً في خصومة، أو كلمةً طيبة، أو يداً تكفّ عن الظلم، أو قلباً يترك شهوةً لأنه خاف مقام ربه.

لقد بدأت السورة بالرحمن قبل الإنسان، لتخبره أن الرحمة أسبق من وجوده، وقدمت تعليم القرآن على خلقه، لتخبره أن المعنى أسبق من حيرته، وختمت باسم ربه بعد فناء الخلق، لتخبره أن الرحمة أبقى من زواله. أنت محاط بالرحمن من البداية إلى النهاية؛ سبقتك رحمته قبل أن تسأل، ولافتك هدايته حين استطعت أن تفهم، وتنتظرك عدالته حين تعود، وفتح لك إكرامه باباً إلى خلودٍ لا يعرف الفناء.

وما بين ﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تقع قصة الإنسان كلها: خلق من صلصال، وُرفِعَ بالبيان، ووُضِعَ أمام الميزان، وحُمِّلَ أمانة الاختيار، وأُخبر أن كل مَنْ عليها فان، ثم دُعي إلى أن يصل فناءه ببقاء الله، وخوفه بمجنتين، وإحسانه بإحسانٍ لا حدَّ له. فما أضال الإنسان إذا انفصل عن ربه، وما أكرمه إذا عرف مقامه؛ حفنةً من طين، لكنها تستطيع أن تقرأ القرآن، وأن تقيم الميزان، وأن تسجد للرحمن، وأن تعبر من فناء الأرض إلى أفنان الجنان.

وبعد هذا كله، لا يعود سؤال السورة طلباً لجوابٍ لفظي؛ فقد صار الجواب مشروع حياة: أن ترى النعمة فلا تعمى عن المنعم، وأن ترى الجمال فلا تنس الميزان، وأن تعرف الفناء فلا تياس، وأن تعرف البقاء فلا تتعلق بغير الله، وأن تخاف مقام ربك دون أن تقنط من رحمته، وأن تحسن لأن الإحسان لا يضيع. وحين يستقيم هذا كله في القلب، يصبح وجود الإنسان نفسه جواباً هادئاً ممتداً عن ذلك السؤال العظيم.

تبارك اسم ربنا ذي الجلال والإكرام.